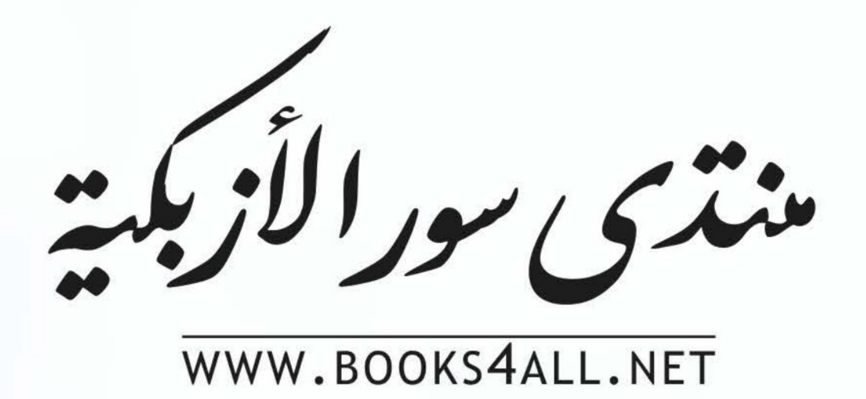

شرشيل
رحلة الشاطر مهاود من كفر السلطان
الى عين الخير مرورا بشرشيل
رواية
نجلاء محمود محرم



منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

شرشبيل

رحلة الشاطر مهاود من كفر السلطان

إلى عين الخير مرورا بشرشبيل

رواية

نجلاء محمود محرم

1

وتبدأ الحكاية بنزول محاود من القطار

أخذته غفوة .. استيقظ على صوت صراخ فرامل القطار المتقطع : " إئ.. إئ".. وعلى هزات وأرجحات .. نهض .. دفعه تيار متحرك فى طرقة عربة القطار المزدحمة .. قاوم .. حاول أن يثبت قدميه .. النوم ما زال يخدر انتباهه .. تشبث بأظهر المقاعد .. أمسك بأكتاف الجالسين .. لكنه كان يخطو رغما عنه .. ويخطو .. ويقترب من باب القطار .. وتفلت يده كل شئ تمسك به ..

" أهذه هى المحطة ؟ "

النوافذ أمامه مغلقة .. وحمى التزاحم لا تجعل أحدا يرد عليه .. أصبح فى حلق الباب .. وهاهو

الآن على رصيف المحطة .. حبات العرق تغطى وجهه الأسمر .. وشعره الأجعد تشعث وانتفش !

أعاد تشمير أكمام قميصه المقلم .. جذب ياقته إلى قفاه .. رفع سرواله لأعلى .. خبط بلاط الرصيف البازلتى الأسود بقدميه خبطتين نافضا حذاءه قبل أن يتلفت حوله ..

" لابد أن تكون هذه : طلع النخل ! نعم .. وإلا فلماذا كان هذا التدافع ؟ "

عوت صفارة القطار طويلا قبل أن يجر عرباته المتثاقلات ويرحل كاشفا الجهة الأخرى من الرصيف .. تسمرت عيناه على اللافتة العريضة المحمولة على قائمين معدنيين ..

" محطة شرشبيل ! "

بعد لحظات من الذهول صرخ : **القطار !**

جرى .. أرجح ذراعيه .. ملأ الهواء قميصه فصار كالأحدب ..

" انتظر ! أنت يا عم ! يا سواق ! "

ضاقت خطاه وهدأ اندفاعه .. كمقذوف يفقد سرعته .. القطار أمامه صار مجرد نقطة بعيدة .. وقف يلتقط أنفاسه .. يداه فى وسطه .. صدره يعلو

ويهبط .. مسح عرقه بكم قميصه المتهدل .. زفرَ زفرةً طويلة لافحة .. انحنى يلتقط حقيبته .. استدار فى ذعر .. تلفت يمنة ويسرة .. الحقيبة ما زالت فى القطار !

" رحلة غم من أولها !"

مضى خارجا من محطة " شرشبيل " .. عاقدا ذراعيه خلف ظهره .. مصدوما ..

2

غريب في البلد الغريب

انتابت " **مهاودا** " رعدة حين وطأت قدماه أرض " شـرشبيل " .. سرت بين جوانحه موجة بـاردة حادة .. السماء صافية صفاء مميتا .. والسكون التام يُشْعِره بفقـد الحـواس وبأنـه يحـوم فـوق الأرض ولا يطؤهـا بقدميـه .. الشـوارع خاليـة .. صامتـة .. كئيبـة .. والبيـوت مـهجورة .. مرصوصـة علـى الجـانبين .. تنفث جـواً من الخـواء والعزلة ..

بعد طول تجول توقف مُصْغيا .." تك ..تك .. تك " .. التقطت أذنيه وقع الخطوات ..

- أخيراً !

جرى نحو مصدر الصوت .. وقف على بوابة أحد المنازل .. العجوز تهبط درجات السلم فى بطء .. صعد إليها فى لهفة ..

ـ تُهتُ يا خالتى وضاع متاعى ..

نظرتْ إليه بلا مبالاه واستأنفت نزولها !

ـ دلينى على من يستطيع مساعدتى

أشارت بسبابة مقوسة مجعدة إلى بناية صفراء باهتة قديمة مكتوب عليها بخط زاهٍ حديث : مكتب بريد

ـ هو مكتب بريد يا خالة .. جزاك الله خيرا .. لكنى .. احم .. أريد أن .. أن ..

بعينين مغرورقتين بدموع ساكنة لا تنحدر شردت فى وجهه ثم استأنف خطواتها وخرجت للشارع .. و" مهاود " وراءها كَجَرْو وديع .. مَرًّا بمكتب البريد وخلْفاه .. العجوز تنظر لنقطة فى الأفق لا يراها إلا هى .. تقدمها " مهاود " بخطوتين ووقف قبالتها .. توقفت تنظر إليه ..

ـ اسمعينى يا خالة .. ضاعت نقودى .. ولا مأوىً لى هنا .. فلو أنك .. ..

أشارت إلى بيت صغير عالى السقف .. جميع بيوت البلدة عالية الأسقف .. جدرانها أحجارٌ سميكة متراصة .. أبوابها خشبية واسعة ذات دورانات من أعلى ..

ـ أأنام هنا ؟

أومأت .. التقط كفها المجعد وألصق به شفتيه .. برودة الموت أرعبت شفتيه وكفيه .. تراجع فزعا .. تلك العجوز بها شئ ميت .. تعلقت عيناه بعينيها .. رغم تحديقها فى وجهه لاتنظر إليه .. كأنها تنظر إلى ما وراءه .. كأنه لوح زجاجى تتخلله نظراتها وتسقط خلفه ! جرى مبتعدا ثم توقف .. نظر وراءه فرآها تسير بنفس الخطى الرتيبة : تك .. تك .. تك .. تابعها بعينيه حتى اختفت .. راح وجاء أمام البيت الذى أشارت إليه ..

" أأدخل ؟ ربما كانت تعيش هنا ! "

أرعبته الفكرة : **" هو والعجوز بالبيت وحدهما " !**

اقشعر بدنه .. أخذته خطواته إلى مكتب البريد .. دخل .. العتمة لم تمكنه من رؤية شئ .. لكن أنفه التقطت رائحة أوراق قديمة ورطوبة .. شيئا فشيئا

اعتادت عيناه العتمة .. وبدأ يتبين العجوز وهى جالسة خلف أحد الحواجز الزجاجية .. تقلّص قلبُه .. اصطكت أسنانه .. سمع طنينا فى أذنيه .. هوى جالسا .. نظراته لا تحيد عنها وهى تحدق فى وجهه ولا ترى إلا شيئا مجهولا .. استند بكفه على الأرض ونهض .. اقترب منها بحذر ..

- أريد أن أرسل رسالة

أومأت

- رسالة إلى أمى فى " كفر السلطان "

أومأت ثانية

- هل أجد لديك ورقة وقلما ؟

مدت كفها المجعد بورقة صفراء وقلم ومظروف تناولهم وهو يتحاشى لمسها ..

" سامحينى يا أمى .. لا أدرى كيف حدث ما حدث ؟ أنا فى بلد لا أعرف عنه شيئا .. و لا أفهم كيف جئت إليه ؟ ضاعت أشيائى وأريد بعض المال .. أريد الخروج من تلك البلدة فى أسرع وقت .. سامحينى "

تناولت منه الرسالة .. مدّ يده بورقة مالية صغيرة كانت فى جيبه فهزت رأسها رفضا ..

ارتدت يده فى إذعان .. استدار خارجا .. بهر ضوء النهار عينيه .. عاد ثانية .. اقترب من العجوز ..

ـ كتبت عنوانى على مكتب بريد " شرشبيل "

أومات ..

ـ هل تتسلمين الرد إلى أن آخذه ؟

أومأت !

" لاشئ غير الإيماءات ؟ ألا تنطقين ؟ "

خرج ثانية لضوء النهار المبهر .. تسكع فى الطرقات .. أكثر من مرة شعر بها خلفه وخاف أن يلتفت .. ألفى نفسه أمام البيت الصغير .. تريث لحظات ثم اتجه نحوه فى حزم .. دفع بابه العالى ذا القمة نصف الدائرية فصَرَّ صريرا موحشا .. خطا خطوة للداخل .. حبات العرق تجرى على وجهه وظهره .. اشتم رائحة الزمن والنسيان .. فتح النافذة فأنَّتْ مفصلاتها .. تبين محتويات البيت .. همس صوت فى داخله :

" هو بيتها ! "

فكر فى الفرار ولم يدر إلى أين يفر !

3

قلبى على ولدى

" تاه مهاود وضيع حقيبته "

شاع الخبر فى كفر السلطان .. وصلت رسالته لأمه ظهرا ولم يأت العصر إلا والبيت المتداعى قد ازدحم بأهالى الكفر .. يستطلعون .. و ينصحون .. ويتخذون التدابير ..

قالت أمه :

ـ الحقيبة كان بها كل نقوده

أضافت الفتاة الكامشة :

= والأكل يا امه

قالت أمه :

ـ وكل ملابسه

أضافت الكامشة :

= وملابس أبيه الله يرحمه يا امه

تتابعت العبارات :

ـ لا تحملى هماً يا ام مهاود

ـ قرش من هنا وثوب من هناك وتتعدل

ـ يومان ونرسل له

تفجرت الشفقة فى القلوب فانهالت الوعود .. الكلمات تهدئ روع أم مهاود .. الولد سافر من أجلها .. ومن أجل أخته .. هى شجعته .. بل عيرته بقعدته إلى جوارها :

" سلامة وقنديل جاءا بالخير كله .. لم يقعدا خائبين جنب أمهما ! "

سعى الولد للسفر .. ولما جاء النصيب زغردت .. سألها :

ـ مبسوطة يا امة ؟

= تروح وترجع بالسلامة يارب

وراح مهاود .. حدفه القطار إلى " شرشبيل "

ـ أبعيدة " شرشبيل " تلك يا شيخ " حمد " ؟

= والله يا ام مهاود ما سمعت بها ! ألم يرسل عنوانه ؟

نظرت الأم إلى ابنتها الكامشة فى تساؤل

= مكتوب فى الجواب يا امه

ـ لا مشكلة إذن .. سنرسـل لـه علـى عنوانـه قرشين ورداعين ..

خرج الشيخ " حمد " وخرج معـه البـاقون .. تطلعت جنات الكامشـة إلى أمـها الباكيـة .. انـزوت فى حضنها واجمـة .. ودموع الأم تتساقط على شعر الفتاة الأسود المضفور ..

4

أحلام من لم يتعودوا الأحلام !

بفلوس الجمعية التى قبضتها أم " مهاود " اشترت له ملابس .. ووضعت الباقى فى مظروف

ـ قل له يا شيخ " حمد " أن يرسل كل شهر قسط الجمعية ..

تتهداتها تُطيّرُ الورقة التى يكتب فيها الشيخ " حمد " الرسالة .. على عينيها مرّت الأيام قبل أن ترسل له الفلوس والملابس .. فلا أحد ساهم بثوب ولا بقرش .. كانت الوعود المغموسة فى الشفقة أكبر من القدرة .. وحتى الجمعية التى أشار بها الشيخ " حمد " دفعوها من لحم الحى لتقبضها أم " مهاود " وتدبر أمورها ..

ـ اطلب منه يا شيخ " حمد " أن يطمئننا عليه الله يسترك ..

= وعلى الفلوس والملابس يا امَّه !

جلباب " **جَنَات** " ليس مرقعا .. فثقوبه التى لم تُدَاوَ تُظهِرُ قميصها الداخلى الأخضر الباهت .. قال لها " مهاود " أنه سيرسل لها بدل الثوب أربعة أثواب .. وهى صدقته .. وقالت لجاراتها .. ونامت تحلم بالأثواب الأربعة .. فرأت نفسها ترتديها جميعا فوق بعضها وتسير مزهوة بنفسها فى البلدة .. والفتيات تطللن عليها من شقوق البيبان .. والهواء يُطَيِّرُ طرف ثوب ليكشف عن الثوب الذى تحته .. لكنها تنتبه فجأة إلى قدميها الحافيتين الملطختين طينا .. وتجذب أثوابها لتدارى قدميها .. وتجرى نحو بيتها وهى تسمع ضحكات الفتيات ولاتراهن .. وتستيقظ حزينة .. ولاتحْكِ لأمها الحلم وتظل صامتة .. وتقول الأم :

ـ من يوم أن سافر " أخوها والبنت يدها على خدها !

ترتاح لتفسير أمها .. فهو يجعلها حزينة .. والحزنُ عقلٌ .. وسيظن الآخرون أنها عاقلة لكونها

حزينة .. وهى تتوق لأن تكون عاقلة .. وتحاول أن تكون عاقلة لكنـها لا تستطيع .. تدفعـها قـوى خفيـة لارتكاب ما يقولون عنه عبطا .. فترتكبه ! وسرعان ما تندم .. وتنوى أن تكون عاقلة .. ثـم تعود القـوى لتدفعـها مـن جديـد .. فتندفـع .. وتنـدم .. وتنكسـر النفس .. وتفزع النظـرة .. وتضيـع الحـروف مـن الكلمـات .. وترتسـم علـى الشفتين الجميلتيـن بسـمة القـهر والخذلان .. لكـن آه لـو يرسـل " مـهاود " الأثواب .. لن تكون " جنات " العبيطـة بعد ذلـك .. ولن تسألها أى فتاة إن كان فى رأسها مخ أم مهلبية ؟ المـهم أن تـأتى الأثـواب .. هـى حقـا طـردت مـن المدرسة وقالوا عنها عبيطـة .. وحبستـها أمـها ومـا عـادت تسمح لـها بـالخروج .. لكـن لايـهم .. فمـن الممكـن أن تـرى الفتيـات ـ اللاتـى كـن زميلاتـها ـ الأثواب بطريقة أخرى غير المدرسة .. كأن ترتديها مثلا وتجلس أمام الدار .. تفرد طولها وترفع رأسـها ليرين أنها لم تعد كامشة .. فليس بالثوب ثقوب تضم ذراعيها لتداريها.. وليس فـى مظـهرها مـا يحرجـها ويجعلها تميل بجذعها أماما وتحنـى رقبتـها .. حتـى

الفضيحة التى سحقتها سينساها الناس .. فقط لو يرسل " مهاود " الأثواب !!

نهرتها الأم لما رأتها جالسة على درجات السلم الطينى الصاعد للسطح :

ـ ستظلين عبيطة ! تريدينه أن يقع فوق دماغنا ؟

ثم نظرت إلى سقف الدار .. إلى الثقب الواسع الذى تتدلى منه ألياف عروق الخشب المحطمة .. والذى تلقى حوافه ذراتِ رماد عند كل اهتزازة .. ومصمصت شفتيها .. من أجل هذا الثقب سافر " مهاود " .. قال إنهم سيبنون دارا بالحجر .. ولن تسقط ذرة تراب قبل أن يرسل فلوسا .. لكنها هى التى أرسلت له الفلوس ..

" ربنا يرجعه سالما غانما "

تلك هى شروط الفرح برَجْعَتِهِ : السلامة والغُنم .. السلامة وحدها لاتبنى الدار .. والغنم لن يجلب راحة إذا أصابه مكروه .. والدار لن تصمد طويلا ..

" محسود يا مهاود .. الكل رمقوك بعيونهم المستديرة وأنت فى طريقك للمحطة .. قالوا سيرسل النقود زكائب .. والعين فلقت الحجر ! "

اتفقـوا أن يبنـوا فـى الـدار الجديـدة حظـيرة ! اقــترحت الأم واندهــش " مهـــاود " وابتـــهجت "جنات " .. واتفقوا ! سيربون بقـرة للبن .. وبضـع قطـع مـن الضـأن للتوالـد .. وسيذبحون علـى عتبـة الدار - بين الحين والحين - خروفا .. وسيكون هناك فائض من الطعام لتسمين الكتاكيت .. والأم هى التى سترعى البـهائم والدجاجـات .. ولـن تحتـاج إلـى الذهاب لحظائر الغير لتقليبها وتنظيفها .. يكفيـها مـا لديها من مهام وخير فـى دارهـا ! وتتوالـى الأحـلام سهلة فياضـة لمن لم يتعودوا تحقيق الأحلام ! سترنو الأم للجارات من سطح الطـابق الثـانى وهـى تنشـر الغسيل وتقول لــهن أن صعـود السلم يقطـع نفســها وأنهن فى نعمة لأنهن ينشرن الغسـيل أمـام دورهـن علـى الحبـال المربوطـة فـى حديـد النوافـذ بعـرض الحارة ! سيتزوج " مهاود " فـى الطـابق الأعلـى .. وسيجرى أطفاله بين يدى جدتـهم .. وستمتلئ الدار ونسا وأمنا .. ولن يتكرر ما حدث " لجنات " !

5

سقطت من السماء إلى قلب الصحراء ؟

اختفى القطار الذى لفظ " مــهاودا " علــى محطــة " شرشـبيل " ! لــم يســمع صلصلــة عجلاتــه مــرة أخرى .. كيف سيغادر تلك البلدة ؟ كيف ستصل رسالته إلى أمه وكيف سيتلقى ردها والبلدة مقطوعة هكذا ؟ الأيام الطوال مرت ولم يصله رد .. رسـالته إذن لم تصل لأمـه فـهى لا يمكن أن تتـأخر عنـه .. ستخلق المال خلقا .. مؤكد لـم تصلـها رسـالته .. لـم ترسلها العجوز الصامتـة .. وبـأى وسيلة ترســلها ولاشئ يأتى إلى البدة أو يخرج منها ؟ فى كل صباح يسير إلـى مكتـب الـبريد .. يسـألها عن الـرد فتــهز رأسها نفيا .. يتجول فى البلدة الخاوية .. يعود للبيت

الصغير فيجد طعاما معدا على منضدة صغيرة ! فى أول مرة وجد فيها هذا الطعام فتش كل شبر باحثا عنها .. فمَنْ غير العجوز يعرف أنه هنا ليعد له طعاما ؟ ثم إنه لايوجد غيرها أصلا! ماذا تريد منه ؟ و لِمَ كل هذا الغموض ؟ ترك البيت وجرى لها فى مكتب البريد .. وجدها تطالع الكشوف الصفراء كعادتها .. نظرت فى وجهه إلى المجهول ..

ـ لماذا صنعتِ لى طعاما ؟

كرر سؤاله عدة مرات ولم تجبه .. خرج حانقا .. طاف بالبلدة حتى تسلخت قدماه .. جابها من شرقها لغربها .. بضعة صفوف من المبانى المهجورة ثم صحراء لا نهاية لها .. وكأن " شرشبيل " هذه قد سقطت من السماء إلى وسط الصحراء ! لا طريق يؤدى إليها أو يُخرجُ منها .. صاح ونادى وشتم وشاط الرمال بقدمه فطيرها الهواء إلى عينيه فى سماجة .. قادته خطواته إلى محطة قطار مهجورة متآكل رصيفها .. لا يمكن أن يكون القطار قد سار فوق تلك القضبان الصدئة .. لكن اللافتة الزاهية اقتحمت عينيه " شرشبيل " ! دفع باب غرفة المسئول عن المحطة فصَرَّ بصوت موجع ..

العنكبوت نسج خيوطه من السقف إلى الأرض ومن الجدار إلى الجدار المقابل .. التصقت الخيوط الكثيفة بوجهه وسقط على كتفه عنكبوت أسود ضخم .. أجفل وأخذ يضرب كتفيه بكفيه فى اضطراب وهو يجرى خارجا .. لم يتوقف إلا ليفتح باب البيت .. ارتمى على فراش تفوح منه رائحة الحفظ لمدة طويلة .. نام فأرهقته الكوابيس .. استيقظ مهدودا ليجد طعامه ساخنا .. خرج يفتش عن العجوز .. لابد وأن تنطق تلك الصامتة .. بعد فترة بطؤت خطواته .. وأخذ يتجول فى الطرقات الخالية إلا من هبات الهواء وتهويمات الخيال .. البيوت المتراصة تهمس له بأنها ما بنيت إلا للسكنى .. وتشى بأن هذه البلدة كانت يوما عامرة .. لكن أين ناسها ؟ وهل للعجوز المريبة دخل فى اختفائهم ؟ اقترب من بعض الأبواب .. دق عليها .. ألصق أذنه اليسرى - التى يسمع بها أفضل من اليمنى - بالبيبان .. لاصوت .. لاحركة .. لامذياع لاجريدة ! هى العزلة التامة ولايوجد مهرب ! هو وحده وتلك العجوز .. وورقة نقد كامنة فى جيب قميصه لايدرى لماذا يحرص عليها ؟ ربما احتاج إلى إرسال خطاب آخر

إلى أمه وربما طلبت منه العجوز ثمن طابع البريد .. وربما طالبته بثمن الطعام والشراب ومقابل الإقامة .. ربما كانت تتربص به لتقتله قتلا بطيئا بالجوع والعطش إذا طالبته ولم يدفع .. ماذا سيفعل عندئذ ؟ وهل من الممكن حقا أن تطلب منه ؟ هل من الممكن أن تحرك شفتيها وتنطق حروفا فيسمع كلاما ؟ أن ينزاح هذا الصمت الذى أجهد أذنيه بطول التحفز ؟

آخر النهار وجد الطعام موضوعا فى نفس مكان طعام الأمس فأصابه نفس الجزع .. تراقصت فى ذهنه نفس المخاوف .. العجوز تستدرجه .. تطعمه مرة ومرة .. وتؤويه .. وحين يطمئن تضرب ضربتها .. سم فى الطعام أو ثعبان يسعى فى فراشه .. رمق الطعام بتوجس ..

" أهى موتة أم أكثر ؟ "

أكل إلى ما بعد الشبع .. وشرب حتى ترجرجت المياه فى جوفه ..

" إن كان الموت فليأتِ سريعا بقدر ما أكلتُ وشربتُ "

جلس يترقب حالـه .. هـل يعـرق ؟ هـل تتسـارع ضربات قلبه ؟ لا شك أن جسمه يثقل عليه .. نعم ..

" أبعيد ضائع أموت ؟ "

الخدر يسرى فى أوصـاله ..

" هل تجدنى أمى ؟ "

خارت قواه ..

" هل سيعرفون قاتلتى ؟ "

تمدد والعرق يتصبب منه !!

6

عائلة ممسوسة وراكبها عفريت !

" مرتضى " الذى جاء لتوه من " طلع النخل " .. أخبر أم " مهاود " أن صاحب العمل سيوظف غير " مهاود " وأنه لن ينتظره العمر كله .. تَوَجَّعَ قلبها المكدود .. استدرك الشاب :

ـ لكن إذا أسرع " مهاود " بالذهاب .. قد يلحق بالوظيفة .. سيحاول زملاؤنا هناك أن يؤثروا على صاحب العمل ليتريث حتى ......

= " مهاود " تاه يا ولدى .. نزل بلدة اسمها " شرشبيل " !

***

أخبره ناظر محطة القطار أنه لا توجد بلدة بهذا الاسم على خط القطار المسافر إلى " طلع

النخل " .. وأن " مهاودا " ربما أخطأ وركب قطارا آخر .. رجاه " مرتضى " أن يستفسر له عن مكان " شرشبيل " ليسافر ويأتى بصديقه .. فأكد له بعد طول بحث أن " شرشبيل " تلك غير موجودة على خط أى قطار !

ـ أهى بلدة خيالية ؟

= على جميع الخطوط يا ولدى لا توجد بلدة بهذا الاسم !

ـ راجع بحثك ثانية .. تأكد الله يسترك

وراجع الناظر بحثه فى الأوراق والخرائط .. واستفسر بالهاتف من زملائه شمالا وجنوبا ..

= لا شئ اسمه " شرشبيل " !

***

انتشر أهل كفر السلطان كالفراش المبثوث .. ولطمت أم " مهاود " خديها ونكشت " جنات " ضفائرها .. وقيل أن الولد من يومه ملبوس .. وأن الجن خطفوه ! وأنه كان راكبا القطار مع فلان وفلان وبقدرة قادر اختفى ووجدوا حقيبته تقفز وتطير وتندفع خارجة من نافذة القطار .. وأن كل واحد ممن رأوا ما حدث خشى أن يحكيه فيقال عنه

مجنون .. لكن " مهاودا " اختفى وحقيبته طـارت .. وتلك هى الحقيقة !

انزوت "جنـات " وأمها فى دارهما المتداعيــة .. ولم تعد الأم تنظف حظائر أحد أو تغسل ملابس أحد من أهالى " كفر السلطان " .. وصارت تسير إلى القرى المجاورة - التى لايعرفها فيها أحد - لتسألهم عملا أو مساعدة .. فقد أغلق أهالى " كفر السلطان " أبوابهم فى وجهها بعد أن اكتشفوا أن العائلة كلها ممسوسة وراكبها عفريت ! وما عادت الأم تقلق على " جنات " فالجميع صاروا يخافونها .. والشاب الذى فعل فعلته بها تلعن أمه جدود " جنات " التى كانت شؤما عليه .. فمن يومها وهو مريض وحاله عدم !

الليالى صارت تتصرم و"جنات " وأمها تنزويان جائعتين فالقروش مراوغة و لا تأتى حين يحتاجها الناس .. بل تأتى " بمزاجها " وكأن لها أعين ترى بها من ينتظرها فتروغ منه وتهرب .. و" مهاود " راح .. وجاءت السمعة المخيفة .. وانفض الناس عنهما .. الأم تلعن قسوة قلبها التى فرطت فى ضناها .. كان يدخل ويخرج عليهما فتشعران أن

لـهما رجـلا .. لكـن طمعـها جعلـها تسـوطه بلسـانها الطويـل .. وتـعيره بقعدتـه جنبـها " كالنسـوان " .. أنفقت عليه دم قلبها ليكبر ويأخذ الشهادة ويتوظف .. وكبر وأخذ الشهادة وقعد .. يضع كسرة الخبز فـى فمه والخجل يسحقه .. الرغيف ظل ينقسم على ثلاثة وظل الطبيخ " صياميا " لـم " تزفره " دجاجـة ولا قطعة لحم .. ولما حدث مـا حـدث لجنـات .. واندفـع ليقضى على من آذاها .. أطبقت أمـه علـى معصمـه وأنفذت نظراتها المتقدة فى عينيه وقالت :

ـ لو كان لدارها باب يقفل عليها ما طالها أحد!

حتـى لـو قتـل الجـانى .. سـيبقى بـاب الـدار مفتوحـا .. وسيجئ بدل الجـانى عشـرة .. وسـافر " مهاود " ليأتى للدار بباب يغلق على نسائها ..

" ليتـك بقيـت يـا ولـدى .. ليتـك قتلتـه وعشـت سجينا تـراك عيـن أمـك .. الـدار مهدمـة .. والنـاس كارهون .. والشقاء بحر بـلا قرار .. وأنـت ضـائع فى بلاد الغربة .. "

7

مصيبة لو ماتت !

" وقوع البلاء ولا انتظاره "

بخطوات ثابتة عازمة مضى " مهاود " إلى مكتب البريد .. تفجرت عيون السخط فى نفسه ففاضت غضبا .. خالف طبيعته .. لابد من وضع حد .. خبط الحاجز الزجاجى بعنف .. رفعت العجوز عينيها الناظرتين للمجهول ..

ـ أين الرسالة التى وصلت باسمى ؟

خفضت العجوز عينيها مستأنفة تأملها لكشف أصفر مهترئ ..

ـ ردى ! أم أنك بكماء ؟

صمتها يقذفه فى أتون الجنون .. مدّ يده من الطاقة المستديرة فى الحاجز الزجاجى .. أمسك

بخناقها .. جذبها من فوق مقعدها فسقطت .. تعلقت في يده .. شدد قبضته على ثوبها ..

ـ انهضي .. قفي على قدميك !

كفه القوي يطبق على ملابسها .. وساعِدُهُ يطوحها بِغِلّ كأنه يريد أن يبعثرها ..

ـ لا تتماوتي هكذا ! قفي على قدميك وحدثيني !

ظلت معلقة في يده .. تتطوح حيث يطوحها !

ارتَدَّتْ له طبيعته .. غاضت عيون السخط وانطفأت الثورة ..

" **هل ماتت ؟** "

مدَّ ذراعه إلى آخرها من فتحة الحاجز الزجاجي عله يتمكن من وضعها على الأرض أو إسنادها إلى المقعد .. حشر كتفه في الفتحة الضيقة المستديرة ولم يتمكن من الوصول .. فكر في فتح قبضته وتركها لتسقط ..

" **ستتحطم** "

العرق يجري على جبينه وعنقه ..

ـ أفيقي !

صوته مشحون بالتوسل .. جذب ذراعه محاولا رفعها ووضعها على الرف خلف الحاجز الزجاجى .. لم يتمكن ..

" أأحطم الزجاج ؟ ليس هناك سوى هذا الحل .. لكنها ستجرح .. نعم .. سيتناثر الزجاج ويصيبها "

- ردى على يا خالة ..

هزها برفق كأنها فنجان قهوة !

" مصيبة لو ماتت "

حافة الزجاج تحز فى عضده وقبضته تغافله وترتخى فيعيد تشديدها .. جر كرسيا بقدمه .. ارتقاه .. تخطى الحاجز الزجاجى بقدمه اليسرى بينما ظلت كفه اليمنى ممسكة بالعجوز من خلال الطاقة .. أطبق على ذراعها بيسراه ثم سحب يمناه المجهدة من خلال الزجاج .. عبر بساقه اليمنى الحاجز .. أصبح بكامله خلف الزجاج .. نزل إلى الأرض .. أرقد العجوز على الأوراق المتناثرة .. مسح بكفه جبينها .. برودة الموت أرعبت أنامله .. حملها .. أذهلته هشاشتها .. تكاد تتحطم من مجرد الضغط الواهن على عظامها .. يشعر أنها بلا

وزن .. سار بها إلى البيت .. بيتها الذى سمحت له بالإقامة فيه .. أرقدها فى فراشه .. راح يتأملها .. تجاعيد وجهها ذكرته بلحاء شجرة الجميز العتيقة على الترعة فى مدخل " كفر السلطان " .. أمسك كفها البارد محاولا تدفئته بكفيه .. ارتعش الكف الواهن بين يديه وانحدرت دمعة فى أخدود التجاعيد الممتد من جانب عينها حتى أذنها ..

8

سافر بالسلامة ..

داخ " مرتضى " طوال اجازته يسأل عن : " شرشبيل " دون فائدة .. ولما حان موعد عودته إلى " طلع النخل " ذهب إلى أم " مهاود " ..

ـ أتريدين شيئا قبل أن أسافر ؟

= سلامتك يا ولدى

تدخلت " جنات " مستنكرة :

ـ سلامته ؟! نريد أن نعرف سكة " مهاود " !

= اسكتى يا " جنات "

ـ ألم يقل أنه سيبحث عنه ؟

" ليتنى أعرف كيف أبحث ! لا أحد يعرف شرشبيل هذه .. القطار الذاهب إلى طلع النخل لا

يمر عليها .. وسائقو السيارات لم يسمعوا بها.. آه يا مهاود لو أعرف طريقك "

جاءه صوت أم مهاود قاطعا شروده :

ـ سافر يا ولدى بالسلامة ..

احتجت " جنات " :

ـ سافر بالسلامة .. سافر بالسلامة .. كلما رأيت أحدا لا تقولين له إلا هذه الكلمات ! سافر يا " مهاود " .. سافر يا " قنديل " .. سافر يا " مرتضى ".. ..

نهرها " مرتضى "

تركتهما " جنات " .. سارت تطوح ذراعيها وتميل فى مشيتها يمنة ويسرة

ـ لن أكف عن البحث عنه .. صدقينى ..

= كله بأمره يا ولدى ..

التسليم والخضوع هما الوجه الآخر للعجز عن الفعل ..

دخلت " جنات " يتبعها الشيخ " حمد " .. ألقى التحية وجلس فجلست إلى جواره تخصه بالترحيب لتَفْهَمَ أمُها وليفهمَ مرتضى أنها لم تجئ للجلوس معهما وإنما جاءت فقط من أجل الشيخ " حمد " !

الأم تتطلع للشيخ " حمد " فى توجس وارتباك ..

همس لها أنه يريدها في كلمتين .. نهضت وهي تتمتم : " يا مسهل يا رب " .. قالت " جنات " :

ـ عم الشيخ " حمد " يريد قسط الجمعية .. هل معك فلوس ؟

تذكر تحذيرات أبيه :

" لو عرفوا سكة نقودك لن يعتقوك "

لم يرد على " جنات " التي نسيت سؤالها وانشغلت بإدخال أصبعها في أحد ثقوب ثوبها .. ثم انتبهت فجأة :

ـ لو عثرت على " مهاود " قل له أن يرسل لي مداسا مع الجلابيب !

عادت أم " مهاود " بملامح كسيت هما.. استأذن " مرتضى" وخرج بعد أن قبلته في جبينه و دعت له .. مستاء هو من نفسه .. أم " مهاود " التي طالما قسمت معه طعامها هي وولدها .. والتي كانت تطهو له البامية الصيامي ذات الطعم الأشهى من طبيخ زوجة أبيه الدسم الماسخ ! والتي لا تناديه إلا متبعة اسمه بكلمة " ابني " .. والتي أرضعته عامين بعد موت أمه ـ حبيبتها ـ أثناء ولادته .. أم صديقه ورفيقه الذي ما كان عنه يفترق .. تحتاج

للمال .. فتطفو لديه غريزة البخل المتأصلة فى أبيه وتنتصر على حبه لها .. ويتركها .. هى التى جادت برحيق الأمومة وقسمت نصيب ولدها منه لتمنحه إياه ..

" لو عرفوا سكنتك لن يعتقوك "

" ولو لم يعرفوا سكنتى لن يعتقهم أحد ! "

خمسون جنيها فى جيبه .. لم يترك له أبوه غيرها .. منها سيسافر إلى " طلع النخل " ويأكل ويشرب ويسكن لمدة شهر حتى يقبض مرتبه .. لن يستطيع أن يفرط فى مليم منها .. ولن تكفيه ! تباطأت خطواته .. توقف .. عاد إلى أم " مهاود " .. نهضت فى قلق تستطلع :

ـ لا تحملى هم الفلوس .. سأرسل لكم كل شهر ما أقدر عليه !

= وما ذنبك يا ولدى ؟

ـ لن أترككما للبهدلة ..

9

وعلى مرمى البصر تبدو شاحبة !

يهتز القطار مؤرجحا ركابه .. نوافذه أفواه واسعة تشفط صهد الدنيا وتقذفه فى وجوه الركاب .. روائح العرق والأقدام التى خرجت من أحذيتها والأنفاس الجائعة تزيد الجو اختناقا ..

" هيا .. اجرا الفظ ركابك ككل مرة على رمال طلع النخل .. ما أنت إلا ماسورة صرف .. وما نحن إلا مخلفات تعرف طريقها إلى مصرفها .. إلى طلع النخل .. كل يترك أهله وناسه .. تفر الحياة من بلادنا ويتوطنها الحنين والحزن .. ونظل نجرى إلى طلع النخل .. كل يعرف طريقه .. لماذا ضللت أنت الطريق يا مهاود ؟ أولست مثلنا ؟ "

خبطته فى رأسه قدم متدلية من حامل الحقائب أعلى المقعد .. صاح :

ـ لِمْ رجليك يارجل !

استأنف تأمل الطريق .. رمال .. رمال .. كثبان وأشواك .. أعمدة تليفونات تدلت أسلاكها حتى لامست الرمال تمرق فى الاتجاه العكسى .. حفظ تلك المعالم .. العمود المائل .. مبنى المحطة الأحمر العتيق .. الشجرة العجوز التى احتاطت لمرور القطار فصارت تمد فروعها فى الجهة البعيدة عنه فقط ..

" ترى أين أنت يا مهاود ؟ وأى بقعة من هذه الرمال ابتلعتك ؟ "

القدم المتدلية ما زالت تدق رأسه .. كف عن مضايقة نفسه بها .. اعتاد دقات الحذاء على رأسه !

" بعد البئر القديمة التى تتراص الأحجار حولها سيتفرع شريط القطار إلى خطين .. خط صدئ بنى اللون يتجه يمينا .. وخط لامع فضى يوصل إلى طلع النخل يسارا "

النوافذ الآن أصبحت تشفط الصهد و وَميضَ الشمس معا وتقذفهما فى أعين وأجساد الركاب ..

الشمس تضبط زاوية أشعتها تماما لتصيب عينى " مرتضى " .. تميل مع القطار كلما مال .. تنظر له فى وقاحة .. تتحداه .. الوقت يمر وهى لا تحيد عن عينيه وكأن القطار مسافر إلى بوزرتها ! لاحظ مرتضى توقف الدق على رأسه .. نظر لأعلى .. الرجل تمدد فى حامل الحقائب ولم رجليه أخيرا .. عاود مرتضى النظر إلى معالم الطريق .. اندفع القطار يهدر فوق الخط اللامع بينما الخط البنى الصدئ يبتعد فى عمق الصحراء مذعورا كأن القطار قد فاجأه أثناء لقائه بحبيبته الفضية ..

هناك على المدى .. حيث يفر الخط البنى الصدئ .. وعلى مرمى البصر .. تبدو شاحبة بنايات صفراء لا تكاد تظهر وسط صفرة الرمال .. انحنى مرتضى .. أخرج رأسه من النافذة .. دقق النظر ليتأكد من وجود تلك البنايات .. وتمتم : **" شرشبيل "** !

هى أنفاس الحياة تتردد فى صدره ..

مدت العجوز طريحة الفراش يدها بكبشة مفاتيح .. تناولها " مهاود " وهو يسألها :

ـ مفاتيح ماذا هذه ؟

أشارت حولها وأشارت خارج البيت .. وضع " مهاود " المفاتيح جانبا .. أخذتها العجوز وناولته إياها وأشارت حولها مرة ثانية .. ومرة ثانية لم يفهم ! تنهدت طويلا .. أغمضت عينيها على حزن ..

ـ تحدثى .. قولى ماذا تريدين .. أنا أشعر أنك تتكلمين ..

نظرت نظرتها المعتادة ثم تهدجت أنفاسها .. لم يسمع لها صوتا غير هذه الأنفاس والحشرجات ..

أحكم الغطاء عليها .. منذ أيام وهو ينام فوق بساط على الأرض بجوار فراشها .. تلتقط أذنه كل شهيق وكل زفير وكل طقطقة يحدثها السرير .. يهب ليلبى لها رغباتها .. صارت لهما لغة إشارة تعارفا عليها .. يسقيها ويطعمها من الطعام الذى يجده معدا كلما غفت عيناه أو انصرف عن الحجرة لأى سبب .. يسندها لتجلس ولتنام .. يحكى لها عن " كفر السلطان " وعن أمه وأخته وداره .. يتأملها بالساعات فى خوف .. أفزعه احتمال موتها .. هو الانقطاع التام عن العالم إذن .. تلك العجوز هى أنفاس الحياة التى تتردد فى صدره .. لماذا كرهها فى وقت ما وهى التى أحسنت إليه ؟

لما عاودت الإشارة إلى ما حولها حمل " مهاود " المفاتيح وحاول فتح خزانة قائمة فى ركن الحجرة .. ظن أنه لمح طيف ابتسامة على وجه العجوز .. استدار سريعاً ليتأكد فلم يجد أى ابتسامة .. جرب المفاتيح إلى أن فُتِحَتْ الخزانة .. فزعت حشرات وتمزقت خيوط عناكب .. أكوام من الأوراق المصفرة وملابس غريبة وأغطية رأس لم

ير مثلها .. مداسات ذات مقدمات مدببة وخواتم وعقود انطفأ بريقها ..

" من أى زمن تلك الأشياء ؟"

فى ركن الرف السفلى تكمن صناديق خشبية صغيرة .. أشارت له العجوز أن يخرجها .. حمل بعضها و وضعه أمامها وجلس على حافة السرير .. بكفها المجعد نبشت فى صندوق صغير .. ابتسمت حين التقت أناملها بما تريد .. رأى ابتسامتها هذه المرة فترطب قلبه الظمآن للتعبيرات الإنسانية الحية .. خرجت يدها بحلقة خيط صغيرة منضود فيها سبع حبات فول تآكلت ولم يبق منها إلا قشور بنية داكنة .. اندهش .. فقد حكت له جدة " مرتضى " عن سبوع الفول الذى كانوا يصنعونه للاحتفال بالمواليد الجدد.. أيكون هذا هو؟ سألها :

ـ لمن هذا السبوع ؟

ربتت على صدرها فى حنان ..

ـ لولدك يا خالة ؟

أومات فى أسى وغاضت ابتسامتها .. لمعت الدموع فى عينيها .. مدت ذراعها وهزت كفها مشيرة لبعيد ..

ـ إلى أين سافر ؟

استمرت فـي الإشـارة للبعيـد .. التقـط كـل مـافى الخزانة ..

ـ لمن هذه الأشياء ؟

ظلت تشير بكفها بعيدا بعيدا .. الكل رحل إذن ؟!

همس فى عطف :

ـ سيعودون يا خالة ..

ضغطت على كفه بينما الدموع تتحدر على لحاء وجهها !

11

لما احتضرت شرشبيل ؟

أيام مرت لا يعرف لها " مهاود " عددا .. وعجوزه ممددة فى فراشه تصارع الانهيار .. اكتشف " مهاود " أن لها كفين ككفى أمه .. وأن عينيها تشبهان عينى " جنات " .. بل حدثته نفسه بأن تلك العجوز كانت تعيش فى قريتهم وأنه رآها وحدثها .. بل ربما تكون قد أطعمته بيديها هاتين .. واصبح يزداد ثقة بأنها - إن حدثته - سوف تحدثه بلهجة أبناء " كفر السلطان " .. نعم .. ربما كانت هى العجوز التى كانت تبيعه " الأرواح " صغيرا ؟ أو هى التى كان يراها على حواف غيطان القصب تكسر " زعازيعه " لتطعم بها المواشى ؟ هى واحدة سبق له أن رآها .. وتلك الأيام والأسابيع التى

مرت عليه فى " شرشبيل " ليست هى كل تاريخه مع العجوز .. فهناك تاريخ غامض تواصل مع حاضره هذا .. ..

صحيح أن كل العجائز يتشابهن فى شئ ما .. فى ابتسامة باهتة أو فى تقطيبة ثابتة .. فى صوت مرتعش أو فى كف برزت عظمة إيهامه فصار مربعا .. كل العجائز تحمل أعينهن نفس النظرة الدامعة حيث تتماوج دموع لا تسقط .. وعجوزه واحدة منهن .. ربما تشبه أمه كما تتشابه العجائز .. لكنها تشبه " جنات " أيضا .. وتشبه شجرة الجميز .. بل انها تشبه الطريق الترابى المتعرج الذى يصل " كفر السلطان " بالطريق السريع .. حتى ملابسها وأنفاسها لها رائحة حقول " كفر السلطان " !

***

العجوز صارت قادرة على التجول فى المنزل .. صارت تتناول طعامها بنفسها بعد أن كان يدسه بيده فى فمها .. الطعام .. آهٍ من هذا الطعام .. الطعام الساخن والماء البارد عند الحاجة إليهما يكونان

جاهزين .. اعتاد أن يأكل ويشرب .. لم يعد يندهش أو يتوجس .. سألها يوما :

ـ من أين يأتى هذا الطعام ؟

احتفظت بصمتها ولم يبد عليها حتى أنها سمعت سؤاله .. لكنه عندما سألها عن مكتب البريد وما إذا كانت تريده أن يقوم نيابة عنها بعملها ؟ سمعته ! ومدت له يدها بالمفتاح ! التقطه وجرى وجرى حتى وصل لمكتب البريد .. فتحه واندفع داخله .. أخذ يقرأ كل ما تقع عليه عينيه من أوراق .. الأوراق الصفراء المتربة التى فقدت مرونتها وصارت أطرافها تتقصف .. أكوام من الرسائل التى لم تصل لأصحابها .. أسماء غريبة .. تواريخ قديمة .. قديمة للغاية .. أظرف غريبة الشكل .. بلا طوابع .. عناوين غير مألوفة كأنها لأماكن اندثرت منذ زمن ! كشوف طويلة وكثيرة ملأى بالأسماء والأنساب والعلاقات والقرابات ! كان يظن أن العجوز أخفت الرسائل التى ربما كانت قد وصلت باسمه .. لكنه لم يجد اسمه على أى رسالة .. لابد أن يعثر على شئ يضيء له ظلام جهله هذا .. فتح الدواليب

والأدراج .. نزل تحت المكاتب وتشعبط على الأرفف .. همس له ضميره :

" أسأتَ الظن بالعجوز "

أعاد قراءة الأسماء الغريبة على مظاريف الرسائل القديمة .. لا يوجد بها أى " مهاود " ! فض المظاريف المغلقة .. جرت عيناه على السطور .. الكلمات تفيض جفافا وقسوة .. العلاقات تتحلل والروابط تتمزق .. اسْتُبْدِلَتْ بالرسائل قصاصات الورق الصغيرة .. صار التراسل مجرد تأدية واجب .. ماتت الاهتمامات المشتركة .. ثم انقطعت القصاصات ! هذه الرسائل تسجل تاريخ احتضار " شرشبيل " .. اشتم فيها رائحة الموت .. قرب أحد المظاريف لأنفه .. طالعته كلمتان لم تلفتا نظره إلا الآن :

" عين الخير " !!

لسعته الكلمتان .. صرخ متأوها :

ـ آآه !

طالت آهته .. و رمى رأسه بين كفيه !

" أكل هذه الرسائل ليست مرسلة إلى شرشبيل ؟ حتى الرسائل تأتيك تائهة ضائعة كما أتيت ! "

عاد للعجوز ساهما .. مكتب البريد الذى ظن أنه سيكون معبره للدنيا لا أحد يعرفه ! لا قطار .. لا طريق .. لا حديث .. ولا رسالة .. رمى نفسه فوق المقعد .. رفعت العجوز عينيها مستطلعة .. علامات اليأس تسربت إلى وجهها .. خاب مسعاها ولم تفلح زيارة " مهاود " لمكتب البريد فى تحقيق ما أرادته .. وكما ذهب تائهاعاد تائها .. ومازال بعيدا لم يقترب خطوة واحدة !

نهضت إليه تستند إلى حافة السرير .. تعلقت عيناها بوجهه الحزين ..

ـ الرسائل ليست مرسلة إلى " شرشبيل " .. لن يعرف طريقى أحد .. أبدا !

12

قلبى يحدثنى بذلك ؟

" أو تكون شرشبيل ؟ تلك البنايات الشاحبة المطموسة فى الرمال .. أو تكون هى ؟ مهاود لم يخطئ القطار .. كثيرون رأوه راكبا معهم .. وعلى مدى الطريق لا يوجد مكان يحتمل أن يكون قد نزل فيه .. لكن تلك البنايات الصغيرة البعيدة التائهة فى الرمال .. كيف وصل إليها ؟ وكيف أصل أنا إليها ؟ الخط الحديدى المتجه نحوها صدئ مهمل منذ سنوات لا أعلمها .. وهى هناك بعيدة بعد الأفق .. الصحراء المستوية تجعلها مرئية رغم بعدها .. فما الذى حدفه إلى تلك البقعة المهجورة البعيدة ؟ لكن هل هى بعيدة ؟ هل هى موجودة أصلا ؟ أو لا

أكون واهما ؟ أوَ لا يكون هذا هو السراب الذى يتراءى للمتلهفين فى الصحراء ؟ "

لم يبرح " مهاود " عقلَ " مرتضى " .. والمبانى الضبابية الواهية المرمية فى قلب الصحراء برزت صورتها وملأت ذهنه .. وأثناء طلائه الأسوار الحديدية لحدائق " طلع النخل " لم يكن يرى شكل هذه الأسوار .. وإنما صعدت يمناه وهبطت بفرشاة الدهان وكأنه آلة تتحرك مخلفة وراءها حديدا ملونا .. بينما هو منصرف تماما إلى " شرشبيل " .. يتدبر طريقة للوصول إليها .. للقاء " مهاود " .. للعودة به إلى أمه وأخته و" كفر السلطان " ..

فى محطة قطار " طلع النخل " المغطاة بالرخام .. والملأى بالنافورات والمحاطة بالحدائق الداكنة الخضرة .. تلك المحطة التى بناها أبناء" كفر السلطان " الفقراء طوبة وحجرا حجرا وزرعوا حديقتها وجمّلوُا جدرانها مثلما فعلوا فى كل أجزاء " طلع النخل " .. فى تلك المحطة بحث " مرتضى " عن سائق القطار الآتى من " كفر السلطان " .. وعرف أن السائق القديم نُقِلَ .. ولم تُسْفِرْ رجاءاته عن شئ .. فقد رفض السائق الجديد

رفضا قاطعا أن يتوقف عند التقاء شريطي السكة الحديد :

ـ أنا لي محطات أقف عندها

حكى له مرتضى مرة ثانية حكاية " مهاود " ..

ـ اللهم احفظنا ! هذا من عمل الجان يا أستاذ !

الجان ؟ مرة أخرى الجان ؟ ولم لا ؟! " مهاود" يختفي وتطير حقيبته من نافذة القطار وينقطع الاتصال به كأنما انشقت الأرض وابتلعته ! هو شغل عفاريت حقا .. لكن من الذي رآه وهو يتلاشى ويختفي ؟ ومن الذي رأى حقيبته وهي تطير ؟ لم يجد واحدا .. واحدا فقط يقول : " أنا رأيت " ! الكل يقول : يقولون .. يقولون .. من أدراه أن هؤلاء الذين يقولون صادقون ؟ وإن كانوا كاذبين فأين الحقيقة ؟ قصة العفاريت مازالت هي التفسير الوحيد الموجود لاختفائه ..

= تعلل بأن هناك عطلا وتوقف مجرد ثوان عند تفرع الخط ..

ـ هو ليس قطاري يا أستاذ .. وأنا لا أسيره بمفردي .. فمعي محصل وعطشجي و ..

= سأتفق معهم !

ـ مستحيل .. لن يوافق أحد منا .. لقد جئنا لنضبط الحركة على هذا الخط سيئ السمعة ..

= إن المسافة من هنا ـ من طلع النخل ـ لبداية تفرع الخط لا تقل عن سبعين كيلو

ـ بل واحد وتسعون كيلو !

= هذا غير المسافة الأخرى الموصلة " لشرشبيل " داخل الصحراء .. لابد وأن تساعدنى و إلا فلن أصل إطلاقا ..

ـ خذ سيارة أجرة

= وهل هناك طريق للسيارات ؟

ـ لا !

= أعلم أنه لا .. وأنه لايوجد غير القطار .. وأن أى سيارة لن تستطيع الخوض فى تلك الرمال الناعمة .. وأننى بدون مساعدتك لن أصل إلى " شرشبيل "

ـ وأنا لن أستطيع مساعدتك .. فلدينا تعليمات مشددة بالالتزام بالتوقف فى المحطات المحددة لنا .. ألم تسمع بحوادث القطارات هذه الأيام ؟

= أنا أحدثك عن إنسان ضاع .. بنى آدم .. إن لم أجده أنا لن يجده أحد ! أو لا تدرى ما معنى ضياع " إنسان " ؟

ـ إنسان ؟ وما كل هؤلاء الذين يركبون القطار معى ؟! التوقف يا أستاذ يعنى التأخر والتأخر يعنى عدم وصولى إلى الخط المزدوج فى الوقت المناسب .. ويعنى دخول القطار المقابل على فى الخط المفرد .. ويعنى موت أكثر من " إنسان " !

= والعمل إذن ؟ لو أنك مكانى ماذا كنت تفعل ؟

ـ أترك الموضوع كله وأريح دماغى ! ثم من أدراك أن تلك الأطلال هى " شرشبيل " التى نتحدث عنها ؟

تردد " مرتضى " وقال على استحياء :

= قلبى يحدثنى بذلك !

دارى السائق ابتسامة هازئة :

ـ انزع هذا الموضوع من رأسك

= لكنه صديقى ..

ـ يا أستاذ .. ما عماه الله عليك لا تحاول كشفه .. فقد يسوؤك !

13

ترانيم .. للهوان المزمن !

ثلاثون جنيها تسلمتهم أم مهاود بعد ثمانية وأربعين يوما من سفر مرتضى .. أرسل النقود ولم يذكر شيئا عن " مهاود " ..

ـ ألهاه عمله يا جنات ..

استمرت جنات فى تمشيط شعرها المسترسل الفاحم .. وكأنها لم تسمع ..

ـ إنه حتى لم يذكر اسم أخيك ..

طوحت " جنات " جانب شعرها الأيمن وراء ظهرها بعد أن مشطته ..

ـ لو أنه عرف شيئا لأخبرنا ..

طوحت " جنات " جانب شعرها الأيسر وراء ظهرها ..

ـ لِمّى شعرك .. لا تنقصنا المصائب ..

ارتجفت " جنات " لصياح أمها .. ضفرت شعرها وربطت رأسها بمنديلها المشجر ولفت ضفيرتيها الطويلتين فوق رأسها ..

ـ أنزلى المنديل على جبينك ..

أنزلته " جنات " لتخفى جبينا وضاء جميلا .. فظهرت عيناها السوداوان الصافيتان أكثر وضوحا!

ـ لِفّى الطرحة على رأسك .. انهضى .. هيا ..

جرت " جنات " تتعثر .. التقطت طرحتها السوداء المهلهلة .. لفتها حول رأسها .. أحاطت بها وجهها الأبيض البيضاوى .. فزعها ضرج خديها بالحمرة فظهر وجهها أكثر جمالا .. تمتمت الأم مستسلمة :

ـ حلوة و قليلة " البخت " يا جنات ..

اعتادت الفتاة ثورات أمها منذ الفضيحة التى حلت بها .. وأدركت أن مصيبتها هى جمالها .. وهى شعرها الفاحم وشفتاها المكتنزتان طراوة وحمرة .. وجسدها الفارع البض .. وفهمت أن كل ما فيها عيبا ! وصارت تتلفلف بأسمالها من رأسها إلى قدميها .. وحاولت أن تفهم ماذا يريد الرجال

منها ؟ ولماذا تمتد أيديهم أحيانا لتطال شيئا منها ؟ ولماذا كانت أمها وما زالت تحذرها من مطاوعتهم ومن الاقتراب منهم ؟ حاولت أن تفهم ولم تستطع ! حتى حين حدث لها ما حدث لم تفهم أن هذا هو ما يريده منها الباقون ! لكنها اندهشت لذلك الحدث الفذ ! وحكته لكل من قابلها .. وقال أهل الجانى أنها فضحتهم .. واحتد أبوه على أمها قائلا :

ـ نحن ناس لنا سمعة نحافظ عليها .. لمى بنتك وأخرسيها وإلا .....

وهز سبابته أمام وجهها

= ستسكت .. سأسكتها .. لكن دعها فى حضنى الله يسترك ..

فزعت الأم من إيداع جنات مستشفى المجاذيب .. الرجل قادر .. ولن يحميها أحد منه إن أراد تنفيذ تهديده ! اعتذرت له .. استسمحته .. وعدته بأن تقطع لسان الصبية إن نطقت بكلمة تمس المحروس ولده .. ودعت الله أن يبارك له فيه ! قلبها المشتعل نارا كان أضعف من أن يواجهه .. و ناره التى تأكلها هى كانت أجبن من حرقه ! ألقت الصبية فى حجرة متداعية من حجرات الدار وجلست على بابها

تبكى وتتذلل للدنيا أن تسند ظهرها وتزيح عنها الكرب .. وهى تعلم أن رجاءاتها لن تستجاب وأنها ستبقى كما هى فقيرة ضعيفة مهانة لا تستطيع أن تفتح عينيها فى أعين الآخرين .. حتى أعين من فضحوها ! لكنها كانت تكرر رجاءاتها اليائسة وكأنها تنغيمات للهوان المزمن ليزداد حرقا فى قلبها.. وحين يزداد الكمد تغلى مشاعرها ويفور غضبها .. ولا تجد إلا " جنات " تقدر عليها ! تدقها بكلتا يديها والبنت تصرخ مرتاعة لذنب لم تقترفه هى .. بل لم تعرف أنه ذنب إلا حين رأت صورته على وجه أمها وسمعت صوته فى صرخاتها ! تجذبها الأم من شعرها الحريرى :

ـ سأنزعه من رأسك شعرة شعرة

تغرز أظافرها الغليظة فى وجهها

ـ سيقرف الناس من النظر فى وجهك

تدق بقبضتها ظهرها وصدرها .. تركلها فى بطنها .. تهيل عليها ترابا تقذفها بما يطاله كفها .. وحين تتهد قواها تجلس باكية على باب الحجرة المتداعية ..

لما سمحت لها بالخروج من محبسها كانت الجروح ممتدة على وجهها الشقى .. ورموشها الطويلة منتوفة وشعرها مشعث معفر .. وتحت جلبابها الممزق كانت البقع الزرقاء تنقش جسدها المكدود .. وكانت قد عرفت عاهتها التى ينبغى أن تداريها .. فصارت دائمة التلفلف بطرحتها .. لا تفتح عينيها الواسعتين أثناء حديثها مع الناس .. تسير كامشة مقفعة تدارى كل ما يشى بطراوة عودها ونعومته ..

وينفطر قلب الأم حين ترى انكسار ابنتها .. وتلعن نفسها التى أغرتها بالقسوة على الضعيفة المسكينة .. وصارت كل ثورة للأم على الابنة تتبع بدموع وأحضان ولعن للدنيا التى " بهدلتهم " .. وتزداد الأيام قبحا ..

وهاهى جنات بعد أن طوقت وجهها بطرحتها .. تكمش إلى جوار أمها التى بدأت تلعن نفسها والفقر وميل البخت .. وتضم " جنات " لصدرها .. وتتذكر الابنة أن هناك ثالثا يجب أن ينضم إلى احتفاليتهما الدامعة فتسأل أمها :

ـ ألن يعود مهاود ؟

14

ثم صحراء تقطع الأمل ؟

" آكل وأشرب وأنام .. لاعمل لا حديث "

عواصف القلق تعصف " بمهاود " .. أمه حين تركها لم يكن معها ما يسد الرمق ليومين اثنين .. لكنها ستصمد .. وستعيش .. الدار هى التى لن تصمد ؟ هو يعرف أن أمه المغلوبة على أمرها قوية .. قوية فى حدود ضعف المقهورين .. فى القدرة على احتمال الظروف غير المحتملة .. فى تقبل ألوان المعاناة والشقاء دون انهيار .. ستعمل .. كما كانت تعمل ! وستطعم " جنات " .. وستطعم نفسها .. وستتقبل فشله كما تقبلت كل ما كرهته طوال عمرها .. ولن يعذبها ضياع الأمل فيا طالما ضاعت الآمال ! لكن الدار لن تقبل فشله ولن تسمع

أعذاره ولن تسد عجزه .. وجنات " الغلبانة " لم تألف بعد - رغم مِحَنِها - طعم الأمل الضائع .. ومازالت تنتظره ليفتح لها أبواب السعادة والأمان .. ومازالت هناك فى مدخل الدار تطل على الرائح والغادى وتبحث عن وجهه فى وجوههم .. ومازالت تنام بدون باب يقفل عليها .. فكما كَبَسَ الزمان عليهم كَبَسَ السقف المائل على باب الدار ففلقه وحطمه وأعجزه عن الحركة .. وأصبحت الدار مباحة للجميع .. حتى لمن يريقون أعراض ساكنيها بداخلها ! وقد دخلوا مرة .. ولا شئ يمنع دخولهم ثانية ! ورجل الدار راح ليأتى بالمال .. فلا المال جاء ولاهو عاد !

" ليس أمامى إلا أن أوغل فى الصحراء على قدمى .. فقد أصل إلى أحياء يدلوننى .. نعم لابد وأن أغادر .. مالذى سيحدث ؟ سأتوه ؟ وماذا أنا الآن ؟! سأتريث فقط قليلا حتى أطمئن على العجوز .. وهاهى قد بدأت تتحسن .. ثم أرحل "

صممت العجوز – رغم ضعفها الشديد – أن تخرج .. رفضت إلحاحه عليها بالبقاء أياما أخرى تسترد فيها قليلا من عافيتها التى استنزفت ..

تركها .. أين ستذهب منه وأين سيذهب منها ؟ هما كباطن كف وظاهرها ! وستعود .. لينصت إلى صمتها الذى اعتاده وتعلمه .. أصبح يندهش إذا كح أو تنحنح .. فيغنى أو ينادى أى اسم يخطر بباله .. ويسره أن له صوتا .. ثم سرعان ما ينساه ! ويدهمه الصمت ويعود ينظر حوله ويتأمل .. حفظ عدد شعيرات كفيه وخريطة العروق بهما ! صار يقضى الوقت فى تأملهما باحثا عن معالم جديدة ! تفحص الجدران العالية والشبابيك ذات القسمين العلوى والسفلى المحملة بعبير عز غابر .. حفظ كل ما بها من خطوط وقشور وحفر .. حتى بلاطات البيت التى حال لونها قدما بحث فيها حتى عثر على زوايا محتفظة بلونها الأصلى تحت قطع الأثاث وصار يتخيل ما كانت عليه من قبل .. وأدرك كم كان هذا البيت جميلا مترفا .. وقارن بين بيوت " كفر السلطان " وبين هذا البيت القديم النبيل .. وتساءل لماذا هجر أهل" شرشبيل " عزهم ؟

تجذبه التفاصيل التافهة .. ينشغل بأى شئ تزجية للوقت .. لكن هذا الـ " أى شئ " يجرفه دائما إلى نفس المنزلق .. إلى أمه وأخته .. كفاه اللذان يشبهان

كفى والـده كمـا كـانت أمـه تقول .. والشـبابيك ذات الزجاج الملون التى كانت " جنات " تتمنى أن يكون لبيتهم " المأمول " شبابيك مثلها و .....

فتَحَ باب البيت .. السور الذى يحيط به تكسرت أخشـابه وصـارت مجرد بقايـا أوتـاد متنـاثرة هنـا وهناك .. وتلك النبتات البائسة التى ملّتْ الاخضرار تكسل حتى أن تفرد أوراقها وفروعـها .. حمـل إنـاء مليئا بالماء .. سكبه على النبْتات المكتئبـة الشـاحبة الخضرة التىاعتادت أن تبحث بنفسها عن مائها فـى أعماق الرمال .. تفحص بقايا السور .. بدأ يتصـرف كمقيم ويفكر فى الترميم والرعاية !

تـأخرت العجـوز .. أوشـكت الشـمس أن تميـل غاربـة ولـم تعـد .. نـاوش القلـق قلبـه .. خـرج إلـى شـوارع " شرشـبيل " باحثـا عنـها .. سـار نحـو الشـمس الغاربـــة فبـدت البيـوت والشـوارع أكـثر اصفرارا .. غذّ الخطا نحو الغرب .. الإنسان بـدون تعمد يتجه نحـو الضـوء .. والضـوء الآن يـأتى مـن الغرب .. طارد الأشعة الهاربة .. هى المرة الأولـى التـى يخـرج فيـها فـى هـذا الوقـت .. يرهـب دخـول المساء فى تلك البلدة الصامتة .. تجرأ محاولا ارتياد

منطقة لم يسبق له ارتيادها.. صفين من أطلال البنايات الخاوية ثم أحجار متناثرة ثم الصحراء التى تقطع الأمل فى كل خروج أو دخول .. الشمس تطل على الأرض بقوس أحمر مصفر .. تظلم الرمال ويحوم سواد على وجه الصحراء يطبق عليها فى دقائق .. يتأمل صفحة السماء التى أسرعت بإخفاء زرقتها خلف شالها الأسود المرصع بالفصوص اللامعة لتبارى الأرض فى إظلامها .. هم بالعودة للبيت ..

هزيم يناوش أذنيه .. صوت بعيد يهدر منبئا عن جسم ثقيل ينزلق على شئ معدنى .. يرهف السمع .. هو صوت يعرفه .. الرياح تبعثر موجاته فيصله سابحا متقطعا .. هذه الدحرجة المعدنية .. هذه الخبطات .. **القطار** ! نعم .. هو ! هو القطار !

جرى نحو الغرب .. الريح تراوغه .. تحمل الصوت إلى الجنوب فيصل إلى أذنه اليسرى .. يجرى جنوبا ثم غربا فشرقا .. يطارد الصوت .. يضيع الصوت .. يقف ساكنا مشرعا أذنيه ..

يعود بنبتة أمل فى قلبه .. فى الغد سيذهب فى نفس الموعد إلى نفس المكان .. وسيتقدم كل يوم

خطوة حتى يعرف موضع القطار .. هانت .. وهاهو درب العودة قد بدأ يلوح .. ألفى نفسه قد وصل إلى الشارع الذى يسكنه .. جرى ليبشر العجوز باكتشافه .. وقف أمام الدار يلهث ويلتقط أنفاسه .. أذناه المتحفزتان المتحمستان بصيدهما الأول تأتيانه بالصيد الثانى .. همهات وهمسات تأتيه من داخل الدار .. أصوات مختلفة .. أشخاص عديدون .. دفع الباب .. العجوز بمفردها تبتسم له ! اندفع يفتش فى أرجاء البيت ..

ـ من كان معك ؟

ظلت على صمتها باسمة ..

ـ لماذا تبتسمين ؟

اتسعت ابتسامتها ..

عاوده الشعور بأنها شريرة مخادعة .. تركها وانسحب إلى حجرته .. الطعام الساخن موضوع على المنضدة .. عافته نفسه .. تمدد مواسيا نفسه بقرب انقشاع الغمة !

15

يا سائق القطار .. اتفاقنا ناقص !

أخيرا وبعد إلحاح طويل وافق سائق القطار على خطة " مرتضى " ..

ـ عند وصول القطار للتفريعة سأهدئ السرعة فقط ..

قالها السائق فى كثير من الضيق !

قال مرتضى أن هذا يكفيه وأنه سيقفز من باب القطار حاملا زاده فوق ظهره وسيقطع المسافة إلى " شرشبيل " سيرا على الأقدام !

ـ تذكر يا أستاذ أننى حذرتك من كشف المستور

= نعم .. سأتذكر ..

ـ ربنا يستر .. فسوف تقفز على منحدر مغطى بالأشواك والأحجار .. وإذا اقتصر الأمر على مجرد الجروح والالتواءات ستكون محظوظا ..

طمأنه " مرتضى " أنه خفيف الوزن والحركة وأن القفزة لن تؤذيه إذا أبطأ هو القطار بالقدر المناسب ..

ـ وتذكر أيضا أن مساعدتى لك مخالفة لمقتضيات عملى .. وثِقْ أننى ما كنت لأساعدك لولا ما علمته عن سبب العقوبة التى وُقّعَتْ على زملائى الذين كانوا يسيرون هذا الخط قبلى ..

= وماذا كان سبب العقوبة ؟

ـ قيل أنهم تواطأوا مع مجهول للسير بالقطار على التفريعة القديمة .. وخرجوا به عن مساره معرضين حياة الركاب للخطر ..

تقلص قلب " مهاود " من المفاجأة .. قال فى وَجَلٍ :

= التفريعة القديمة تمتد إلى جوف الصحراء ولا يمكن للقطار الرجوع منها إذا دخلها ..

ـ هو لن يرجع ! وإنما سيسير فيها حتى نهايتها .. فهى تلتقى بالخط المستخدم بعد ستين

كيلو من بدء التفرع ! هو خط قديم لم يعاصره أى منا من قبل !

= متى كان هذا ؟

ـ قلت لك لم نعاصره .. بل ربما توقف العمل عليه قبل أن نولد !

= أقصد متى عوقب زملاؤك ؟

ـ آه .. نعم .. منذ حوالى عام ..

" مرحى يا مهاود ! أتراك مازلت حيا ؟ لابد وأن تكون حيا .. لابد يا صديقى .. لكن ما الذى أخفاك عنا ؟ هأنذا قادم إليك .. عرفت طريقك .. طريق تلك الـ : شرشبيل ! "

" والدى العزيز

لم أستطع تجاهل أمر " مهاود " كما طلبت منى .. وأظننى عرفت طريقه .. دبرت وسيلة للذهاب .. وسأذهب إليه .

ولدك : مرتضى "

أعاد قراءة الرسالة عدة مرات ..

" يكفى هذا .. لا داعى للثرثرة وبعثرة الكلام "

احتفظ بالرسالة فى جيبه إلى أن يحين الوقت الذى يعطيها فيه لأحد زملائه ليرسلها بالبريد ..

" حين يحدد لى السائق الموعد .. سأطلب من أى زميل أن يلقى الرسالة فى صندوق البريد بعد أسبوع من رحيلى .. بل بعد عشرة أيام .. وحين تصل لأبى أكون قد قابلت مهاودا وعدت به "

" عدت به ؟! "

خبط بكفه الأسمر على جبينه العريض المستوى الذى انتثرت عليه حبات عرق لامعة ..

***

ساعات مرت وهو جالس على رصيف محطة قطار " طلع النخل " الرخامى ..

" كيف عقدت هذا الاتفاق الغبى ؟ "

الضجيج والصخب حوله لا يلفتان انتباهه .. جحظ بؤبؤ عينيه و بدا عليه الهم .. قطارات تأتى وتذهب .. يجىء ناس ويروح ناس وهو قابع فى انتظار شخص معين ..

قفز لما جاء الشخص المعين ..

ـ اتفاقنا ناقص !

تساءل سائق القطار :

= لماذا ؟

ـ كيف سنعود ؟

= لا تقل لى قف بالقطار لتأخذنا !

ـ بل سأقول هذا .. فلا حل غيره ..

= إذن لاتذهب !

ـ أكمل جميلك والتقطنا ..

= مستحيل .. لن أوقف القطار لأى سبب ..

ـ كيف سنعود ؟

= لقد اتفقت معك على الذهاب فقط .. أما العـودة فهذا شأنك !

16

صار يغفل أحيانا عن غربته ..

أصوات الغناء تنبعث من جوف المنازل المهجورة !

" يا ليلة بيضا السعد نادى على "

الأشباح غير المرئية دائمة الترنم .. أسمعت " مهاودا " صوتها .. صارت أذناه تميز همهماتها حين يمر بجانبها .. فى إحدى المرات ألقى عليهم التحية .. ضحكوا وتباعدت أصواتهم .. عرف أنهم جروا بعيدا .. السعادة تستخفهم .. تجعلهم يحومون حوله أينما ذهب ..

" رجع المسافر جنبى ... قلبى رقص فى جنبى "

ألف " مهاود " أصوات الأشباح التى تصحبه إلى الجهة الغربية من " شرشبيل " فى رحلته اليومية

لالتقاط صوت القطار .. هى كأصوات ناس " كفر السلطان " .. يغنون مثلهم .. يضحكون مثلهم ..

كانت المرة الأولى التى أحس بهم إلى جواره .. فى اليوم التالى لاكتشافه صوت القطار حين ذهب يلتمسه مرة أخرى .. سمع حفيفا واستشعر أنفاسا .. ولما اشتدت الريح أحس دفئا ..

هذه الأشباح ليست كعفاريت " كفر السلطان " ذات الحوافر المعقوفة والأنياب التى تقطر دماً والتى تتقافز فوق الأسطح وتختبئ فى آبار السواقى .. العفاريت التى كان وأصحابه يخوضون فى سيرتها ليلاً ثم يفزعزن من السير إلى دورهم فيتشبث هو بذراع " مرتضى " الذى كان يستطيع مداراة فزعه .. ويتلمسان الخطى فى ظلام الكفر الذى لم تدخله الكهرباء نحو أقرب الدارين .. تلك العفاريت ليست كأشباح " شرشبيل " الأنيسة اللطيفة ..

" لكن هل هذه الأشباح مختلفة حقا أم أننى أتوق لأى صحبة حتى لو كانت صحبة أشباح ؟! "

يوم أحس بهم لأول مرة .. عاد للعجوز راضيا ..

ـ كانت معى اليوم صحبة ..

هزت العجوز رأسها موافقة !

ـ من هم يا خالة ؟

أشارت حولها إلى كل الاتجاهات

" **الأشباح تكلمت وهى لا تتكلم !** "

رحلاته إلى غرب البلدة صارت للانتناس بصحبة الأشباح أكثر منها لالتقاط صوت القطار .. وكثيرا ماكان ينشغل بمسامرتهم ويمر القطار دون أن ينتبه لصوته ! ذلك الصوت الذى ظل يراوغه ويخادعه .. حتى المرة التى سمعه فيها واضحا لم تسعفه قدماه بملاحقته .. وراح القطار مجرجرا صوته خلفه .. وأيقن " مهاود " أنه بعيد جدا .. وأن الوصول إليه مستحيل مالم يره .. ذلك القطار المظلم السارى فى الظلمة .. كيف يحدد اتجاهه فى تلك العتمة ؟ وكيف سيعدو نحوه ؟ ارتقى الأسطح وأحد النظر دون فائدة .. ورغم ذلك ظل يسعى لغرب " شرشبيل " كل ليلة .. يجلس فى عتمة الليل أو فى ضوء القمر ينصت لغناء أشباحه الطيبين .. حفظ الأغنيات وغناها معهم .. استدرجوه لحبهم فصار يغفل أحيانا عن غربته !

سأل أحدَهم عن اسمه فقال له :

= سليم

وتتابعت الأصوات :

= راضية .. عمرى .. مرجان .. حسنية ...

سألهم عن أعمارهم فسكتوا طويلا .. كرر سؤاله فقال أكثرهم حديثا :

ـ نحن لا نحسب لأنفسنا أعمارا !

قال " مهاود " :

= عرفتك أنت سليم

ضحكت الأشباح وتقافزت .. فتحرك الهواء حوله

= ولماذا لا تحسبون أعماركم ؟

سكتوا ثانية .. يحرجهم هذا السؤال .. سكت مثلهم .. جاءه صوت سليم :

ـ لا تزعل منا .. نحن لا نستطيع أن نشرح لك .. لكن اعلمْ أننا لا نحسب أعمارنا لأنها لا تُحسَبُ !

فتح " مهاود " فمه ليسأل : كيف لاتحسب ؟ لكنه أطبق شفتيه وتراجع .. تطوع صوت عذب :

= الزمن لدينا شئ بلا معنى !

خشى مهاود ـ كعادته ـ أن يثقل عليهم بتساؤلاته فسكت على حيرة .. وخشوا أن يضايقوه بغموضهم فاستأنفوا :

= ما قيمة الزمن بدون مادة يظهر عليها أثره ؟ المادة وحدها هى التى تتأثر بالزمن .. تتراكم تتآكل تتحلل .. ولأننا ليس لنا وجود مادى .. فنحن اليوم كما كنا سابقا وكما سنكون مستقبلا .. ليس لنا أجساد تستهلك وتعتل وتفنى .. ولذلك لا نستطيع أن نقول لك عن أعمارنا إلا أنها طويلة جدا بحساباتكم أنتم أصحاب الأجساد! "

الوقت صار ينقضى فى تبادل الحديث ..

= لا أحد يأتى إلى بلدتنا

= منذ خرج أهلها لم يدخلها سواك

= أنت أول قادم نراه

= كنا ننتظر الذين قالوا لنا عنهم أنهم خرجوا

= ليس فى البلدة ما يدفع الناس لدخولها .. مضى هذا الزمن !

الكلمات تتداخل .. والأصـوات تتسـابق .. أخيرا جـاء مـن يسـمعهم .. فليحكوا لـه كل مـا تمنـوا أن يحكوه .. وليحبوه ويغنوا له :

" جانا الهنا وعاود ... من يوم ما هل مهاود "

17

و وشوشت الحيرة فى جوانحهما !

= بسرعة

= قبل أن يستيقظ مهاود

= احترس .. سترتطم رأس الهدية !

= اخفضوا أصواتكم .. ستوقظونه

= لا ! لابد وأن يبقى نائما حتى نضع هديتنا

= لا تجذبوا هكذا !

تقلب " مهاود " فى فراشه .. فتح عينيه وابتسم .. أشباحه اللطاف يعدون له مفاجأة .. أغمض عينيه متناوما .. الأصوات المتهدجة تشى بثقل الحمولة .. حماسهم أكد له أنها مفاجأة سارة .. يهمسون بجوار الباب .. يطرقون برفق .. تم إعداد

المفاجأة وعليه استلامها .. أحس بقربهم حين فتح الباب .. يترقبون رأيه في هديتهم

ـ ما هذا ؟

صرخ " مهاود " !

الجسد الدامى ممدد على كنبة .. تسمر " مهاود " فى حلق الباب .. عيناه مشدودتان لهذا المسجى !

ـ ماذا فعلتم ؟

أفاق من ذهوله وتحرك نحو المفاجأة الراقدة .. الدم يغطى الوجه والرمال الملتصقة به تخفى ملامحه .. حملت العجوز إناء الماء وشرعت فى غسل الوجه الدامى فانكشف .. تمتم " مهاود " فى ذهول :

ـ **مرتضى ؟!**

احتوى رأسه بين ذراعيه .. ضمها لصدره .. قبـّلَ جبينه .. تحسس وجهه .. إنه هو! هو : " مرتضى "

ـ هو صديقى يا خالة ..

ابتسمت العجوز المشغولة بمداواة جراح " مرتضى "

= حملناه من تحت منحدر السكة الحديد البعيد

= تمنينا أن تسرك هديتنا

= هل سيأتى آخرون مثلكما إلى بلدنا يا مهاود ؟

= قل له أن يكلمنا

= نعم .. نعم .. اجعله يكلمنا يا مهاود !!

= ما اسمه ؟

تململ " مرتضى " وبدأ أنينه .. ناداه " مهاود " هامسا .. الأشباح صمتت تماما .. والعجوز مستمرة فى عملها بهدوئها المعتاد .. فتح " مرتضى" عينيه على همسات " مهاود " .. أشرق وجهه الدامى لرؤية صديقه .. هم بالجلوس فألقاه الألم وطرحه على الفراش .. انتفض " مهاود "

ـ مابك يا مرتضى ؟

وضعت العجوز كفها المجعد حيث أشار .. نزعت قميصه الممزق .. مسحت الرمال عن صدره وظهره .. شدت كتفيه بالأربطة للخلف .. بحركة متسائلة من كفه استفسر " مرتضى " عمن تكون العجوز ؟

ـ هى الساكنة الوحيدة فى هذه البلدة

استشعرت جوارحه وجودا آخر حوله فاستطرد :

ـ وهناك سكان آخرون لكنك قد لا تتمكن من رؤيتهم الآن

= أهم خارج البلدة ؟

ـ لا ، ولكن قد يتأخر لقاؤك بهم

= ولماذا ألقاهم أصلا ؟ لقد جئت لأعود بك إلى " كفر السلطان " !

كعادته قذف " مرتضى " عبارته بحدة .. أشار " مهاود " بنظرة جانبية نحو العجوز منبها إياه فاستطرد " مرتضى " :

= أمك فى انتظارك وتكاد تجن !

علت تقطيبة وجه مهاود .. هذا هو ما يضايقه دوما من " مرتضى " : لسانه الذى لا يعرف التمهل أو الترفق بمشاعر الآخرين .. و الذى كثيرا ما جعله يظهر فى صورة الغليظ القاسى رغم ما يجيش به صدره من الوفاء و الحنان .. اتضاح الهدف لدى " مرتضى " يعنى الاندفاع نحوه وإغفال الكثير من التفاصيل التى قد يكون من الأفضل مراعاتها

واندهش " مرتضى " .. كان يظن أن مجيئه سيكون طوق نجاة يلقى لمهاود ما يلبث أن يتشبث به .. لكن يبدو أنه استمرأ الإقامة فى " شرشبيل "

هذه .. وجاء لقاؤهما مختلفا تماما عما تخيل .. شئ في القلبين تجمد .. ومس من العجز أصاب اللسانين .. و وشوشت الحيرة في جوانحهما ..

اغتصب " مهاود " ابتسامة باهتة :

ـ دعنا الآن نهتم بجراحك ..

أطبق صمت .. و حين انتهت العجوز من مهمتها تركتهما

= هل هي خرساء ؟

ـ لا أدري ..

= ما بك يا " مهاود " ؟

ـ فاجأني مجيئك !

= فاجأك أم ساءك ؟

ـ قطعا لم يسؤني !

= ظننته سيسرك

ـ أنا مسرور برؤيتك

مراوغة ثقيلة لم يعتاداها في حديثهما .. توجس وحيطة وتربص .. ومشاعر تزعزعت

ـ أتريد أن تنام ؟

= نعم !

افترقـا .. وكلاهمـا يتنازعـه شـعور الارتيـاح
وشعور الحزن !

18

وكأنه ليس هناك غيرها للبهدلة ..

سقط الجدار الشرقى لمدخل الدار جاذبا معه جزءا من السقف فأطبقا على مدخله .. سحابة التراب ملأت الحارة الضيقة .. وانطلق الصراخ من الدور المجاورة .. وأقبلت أم مهاود - التى لم تكن فى الدار - تجرى بوجه جمده الارتياع وخالطت سمرة شقانه حمرة الفزع .. أقبلت تخبط صدرها بكفيها معا وتعوى ..

تعفرت الرموش والرؤوس والطرح والطواقى .. تغبرت الملامح وطفحت الوجوه بالبؤس .. وتطوع رجال بالدخول إلى الجزء الذى لم يتهدم من الدار للبحث عن " جنات " التى كانت أمها تناديها بصوت يجار هولا :

ـ كانت قاعدة فى المدخل يا ناس !

أصابع الأم الخشنة السميكة الجلد تنبش التراب

= وسعى لنا يا ام " مهاود " لنزيح التراب ونرفع عروق الخشب

صوت الأم الجامد يروع القلوب وينادى " جنات " .. جَرُّوهَا من فوق التراب وهى تقاومهم وتَخُطُّ بقدميها اللتين تغرسهما فى الأرض خطين عميقين .. تَشْعُرُ ألا أحد غيرها سيستطيع العثور على ابنتها .. أفلتت من النسوة وعادت تنبش التراب وتحمل اللبنات المنفرطة من الجدار وتئن .. التراب والحطام يعبَّآن فى مقاطف تُفْرِغ جانبا .. والأم تحمل التراب فى كفيها وفى حِجْرها واللبنات على رأسها وتلقيها بعيدا ..

جذبوا عروق الخشب التى كانت تحمل السقف .. ظهر طرف ثوب " جنات " .. انقطع صوت الأم وتسارع نبشها فى صمت ملهوف .. مئات الأصابع معها تكنس التراب وتزيح الحطام .. " جنات " منكفئة على وجهها .. انزاح غطاء رأسها واختلط شعرها الناعم بالحصى والتراب .. الدم ينشع من ثوبها المنزاح عن ساقين داميتين ممدتين .. وذراعها

مهصور بين عروق الخشب الضخمة .. تراخى صوت الأم الجامد وصار ممطوطا .. عويلها ينتزع القلوب من الصدور .. رفعت " جنات " التى لا يتحرك لها طرف وأرقدت فى سيارة نصف نقل كانت تحمل مواشى تركت بقاياها فى صندوقها .. واكتظت السيارة بالرجال والنساء .. والأم جالسة تمسح بيدها الملهوفة على الوجه الجميل الدامى .. أخذوها منها فى المستشفى الأميرى وأغلقوا بينهما بابا .. تقرفصت الأم خلف الباب .. ماذا بعد " جنات " ؟ لا أحد ! الولد راح وهاهى البنت ! البنت التى قست الدنيا عليها .. فلطمتها وركلتها وجرجرتها .. وكأنه ليس هناك غيرها للبهدلة ! والمفترون يساعدون الدنيا القاسية على " جنات " الضعيفة .. تجأر أم " مهاود " :

ـ منهم لله !

ويعلو صوتها بنشيج مرير .. ينهرها تومرجى :

= اسكتى يا ولية .. أنحن فى قرافة ؟

تتقبض الصدور لذكر القرافة وتستعيذ الألسن ..

ـ لو كانت ـ لاقدر الله ـ حصل لها شئ ما كانوا أخذوها .

ـ نعم ، هى بخير ماداموا أخذوها.. اطمئنى يا ام " جنات "

أسعدها أن أحدا ناداها بتلك الكنية : أم جنات ! نعم .. " أم جنات " التى لم تقدر على أحد إلا على " جنات " .. والتى كانت تضربها ضربتين إذا ضربتها الدنيا ضربة .. والتى حبستها ونتفت شعرها وخمشت وجهها وركلت جنبيها ثم منعتها من الخروج وأجلستها فى مدخل الدار خلف الباب المخلوع لينهار السقف عليها ! الندم نار تكوى أم " جنات " .. تلطم خديها وتصيح :

ـ يابنتى !

فتح الطبيب الباب يسأل :

ـ أين أبوها ؟

أشاروا للأم وقالوا :

= أبوها ميت ..

ثنى الطبيب ركبتيه ليواجه الأم المكلومة الجالسة أرضا ..

ـ البنت يا حاجة حالتها صعبة .. ونريد إقرارا منك لنبدأ فى إجراء اللازم لها.

لم تنظر الأم للطبيب .. ظلت تنظر فى حجرها ..
كتبوا الإقرار .. أخذوا إبهامها فبصم بصمة عريضة
فى أسفله .. وهى تؤرجح جذعها يمنة ويسرة
مستدعية صبرها .

19

بينما يقتلنى عجزى هناك !

ـ هل سترحل مع صديقك يا مهاود ؟

منذ فترة وهو يسأل نفسه هذا السؤال الذى يسألونه إياه .. فقط يسأل نفسه .. وينزلق السؤال على قمة مخه دون أن يخترقه ! منذ جاء مرتضى والسؤال بلا إجابة .. وقبل مجيئ مرتضى كانت الإجابة بدون سؤال ! كان يردد لنفسه : سأرحل .. سأرحل .. سأرحل !

ـ يبدو أنه سيرحل ..

لن يقول لهم أنه يحب صحبتهم وأن حياته معهم طيبة هنيئة .. لن يمنحهم مقدمات توحى بنتائج لن تتحقق .. هو يعرف أنه سيتركهم .. الأم تنتظر ولابد

أن يعود إليها .. رغم شعوره بالاستقرار والأمان سيرحل .. تلك هى الإجابة التى لم يقلها لهم !

- لا أدرى !

= ابق معنا

كيف يبقى ؟ من هم ؟ هو يعرف أمه وأخته وجيرانه وزملاءه .. يراهم طوالا قصارا .. سُوْدا بيضاً .. باسمين عابسين .. هو يدرك أنه معهم يعيش مع بَشَرٍ يعرف قدراتهم .. هذه الأشباح لطيفة نعم .. تحبه بالتأكيد .. وعلى استعداد لإسعاده لكن ..

- أنا لا أعرفكم !

تتابعت الأصوات تردد الأسماء

- ليست الأسماء ما أقصدها .. وإنما طبيعتكم .. شكلكم .. أنا لا أعرف ما أنتم !

= أوَلابد أن يكون لنا شكل لتبقى معنا ؟

- ليس بالضبط .. لكن معرفة ملامح الأخرين تجعلنا أكثر استعدادا للارتباط بهم

= أنت تحب صوت القطار يا " مهاود " ولاتراه

- لكنى أعرف القطار وصوته يخبرنى أنه هو القطار الذى أعرف شكله .. أما أنتم - أصحاب

الأصوات التى أحببتها ـ فمن أنتم ؟ ما أشكالكم ؟ ولماذا لا أراكم ؟

سرت همهمات ..

= حاول يا " مهاود " أن تعتبرنا مجرد أصوات

ـ إذا كنتم مجرد أصوات سأعتبر نفسى أعمى !

= نحن الآن مجرد أصوات

ـ الآن ؟ وماذا قبل " الآن " ؟

استشعر انسحابهم .. ذهب لحجرة مرتضى .. تركتهما العجوز التى كانت تعيد ربط كسوره وجروحه لكى ينفردا .. لكن هل من الممكن الانفراد فى هذا الوسط غير المرئى ؟

ـ مابك ؟

= أحببت هذه البلدة بساكنيها !

ـ وماذا يحزنك ؟

= أنا لا أعرف حقيقتهم يا مرتضى !

ـ فلتكن ما تكون .. أنت هنا لفترة وسترحل !

= ...

ـ أم أن لك رأيا آخر ؟

" مرتضى هو مرتضى .. سيف آدمى باتر .. ماذا تعنى الأشكال ما دامت الطباع هى التى

تحركنا ؟ ما نحن إلا طباع ! بمنتـهى الحسم يفض
مرتضى الاشتباك بين الأشياء دون أن يستشعر
أسفا .. بل يستشعر ارتياحا وعودة بالأمور إلى
نصابها .. ولا ينهدم العالم نتيجة حدته .. ولا يزداد
نماء نتيجة ترددى وغرقى فى مستنقع الحيرة ..
أحسب حساب كل خطوة فلا أخطو أى خطوة !
يصبح " مرتضى " سيفا قاطعا وأظل أنا خيطا
واهيا متشابكا لا يصلح لشئ "

= كيف كانت أمى حين تركتها يا " مرتضى " ؟

ـ قلت لك ما دار بيننا !

= قله ثانية !

ـ كأنك اشتقتَ إليها !

= بالطبع اشتقتُ إليها

ـ لماذا إذن لا ترحب بالعودة ؟

= هذه البلدة طيبة جدا !

ـ طيبة.. أنيسة.. ما هذا الهراء الذى تحدثنى به ؟

= صدقنى يا " مرتضى " .. سكان هذه البلدة
يحبوننا .. ويحبون بعضهم .. لا يسعون فى شر ولا
يعرفون إيذاء ..

ـ " شرشبيلك " هذه أحسن بلاد الدنيا .. لك هذا .. لكنها ليست بلدك !

= نعم .. ليست بلدى !

ـ وأنت هنا غريب ..

= المفروض أننى غريب .. لكنى لا أشعر بالغربة !

• ـ بعيد عن أهلك .. لاترى إنسانا ولا تفهم ما يدور حولك .. لا تعرف كيف جئت ولا كيف تعود .. ولا تشعر بالغربة ؟

= هى الحيرة لا الغربة .. لوعرفت الحقيقة لرحلت أو بقيت مرتاحا ..

ـ ماهى إلا حجج وأعذار ! أنت لاتريد الرحيل ! أعجبتك الحياة المريحة والطعام الساخن والفراش الناعم .. أعجبتك فسحة المساء وحديث القلوب الخوالى .. هنا .. بلا صراع .. بلا شقاء .. بلا ماض .. لا أحد يجرح أو يعير .. لا أحد يذكر بشئ كان .. أو كان يجب أن يكون ! أنت هنا وحدك .. والأم و" جنات " بعيد .. هاتان الثقالتان المربوطتان إلى قدميك .. نزعتهما .. تركتهما هناك فى " كفر السلطان " ومضيت طليقا !

= لا .. لا تقلب الحقائق يا مرتضى ! أنا لم أتخل عن " الثقالتين " كما تسميهما .. ولم أترك " كفر السلطان " إلا من أجلهما ..

- أعلم هذا .. فأنت لم تكن - بعد - قد عرفتَ هذه الحياة الناعمة .. وحين عرفتها مددتَ يدك بهدوء ونزعت " ثقالتيك " ثم تحججت بالمشاعر تارة وبالعجز تارة .. وظللت تردد لنفسك أنك ما تغربت إلا من أجلهما لتخدر ضميرك .. وكأن دورك انتهى هكذا ! الإنسان أخبث المخلوقات يا " مهاود " .. يتخلى يغش يكذب وهو في كل ذلك يدعى أمام الناس بل وأمام نفسه البراءة .. ويتعامل بتلك الادعاءات التى يعلم كذبها دون أن يخجل لا من الناس ولا من نفسه !

= أنت تذبحنى يا " مرتضى " !

- إذن واجه نفسك وقاوم الذبح .. وقل لى الآن وبوضوح أنك ستعود معى إلى " كفر السلطان "..

= أو لا تصدق أن سكان هذه البلدة يحتاجوننى ؟

- لم أبحث فى صدق هذا أو كذبه ! لكننى أعرف أن أمك و" جنات " تحتاجانك ..

= لا تذكرنى بما لم أنسه يا " مرتضى " !

ـ إذن فلنرحل

= وسكان " شرشبيل " ؟

ـ مالك بهم؟ هناك من هم أكثر احتاجا إليك منهم!

= أهكذا ـ ببساطة ـ حسمت من هم الأكثر احتياجا لى ؟ رغم أننى أفشل فى ذلك مئات المرات كل يوم ؟

ـ ماذا أقول لك ؟ ,هما أمك وأختك .. أتتركهما للذل والمهانة وتهرب هاهنا ؟

= وهل استطعت أن أدفع عنهما الذل والمهانة حين كنت معهما يا " مرتضى " ؟ هنا أشعر أننى مفيد .. قادر على المنح .. بينما يقتلنى عجزى هناك فى " كفر السلطان " !

ـ " هناك " هذا هو وطنك وأهلك ومكانك الطبيعى ..

= شئ ما يربطنى بهذه البلدة !

ـ نعم .. أعرفه !! رسالة سامية ! روح عليا هتفت بك أنك يا " مهاود " مبعوث الطبيعة لشرشبيل لتعينها وتكشف كربها !

= أنت تسخر .. لكن تلك .. تلك هى الحقيقة !

ألقى بالجملة الأخيرة كمن يتخلص من حمل ثقيل .. بحلقت عينا " مرتضى " وظلت شفتاه منفرجتان لحظات قبل أن يدير وجهه إلى الجهة التى لا يرى فيها وجه " مهاود " !

20

ما هذه الـ : شرشبيل ؟!

بين الأوراق الصفراء والرسائل القديمة التائهة التى ارتدت إلى " عين الخير " لأنه لم يعثر على الأشخاص الذين أرسلت إليهم .. وبين الرسائل التى أرسلت إلى " عين الخير " ولم يعثر على أصحابها .. جلس " مهاود " ..

ما الذى جاء بهذه الرسائل إلى هنا ؟ ولماذا هى قديمة هكذا ؟ ومنذ متى وتلك البلدة مقطوعة عن الدنيا ؟

أحس بهم يدخلون .. تناثروا حوله ساكنين صامتين .. هذه الحياة السرابية إلى متى تستمر ؟ لعل الرحيل مع " مرتضى " أفضل .. البقاء هنا ضياع .. صار يشعر بذرات جسده تخف وكأنها

مـادة متطـايرة .. الجميـع بـلا ملامـح .. يخشـى أن يكون قد بدأ يفقد ملامحه .. أحيانـا يجرى للمرآة .. يتأمل وجهه .. يلمسه بأصابعـه .. يتـأكد أنـه مـازال موجودا ! أيعود إلى أمه المنتظرة ؟ وإلى " جنات " التى تعيش بلا حام ؟ وتلك المخلوقات الرقيقـة التـى فرحـت بصحبتـه والتـى لـم تطلـب منـه أكـثر مـن الصحبة .. والتى يشعر أنه يبعث الحيـاة فـى كيانـها المتلاشى .. أيتركـها ويعود إلـى " كفـر السـلطان " حيث لاشئ سيتغير بعودته ؟ ستظل أمـه تشـقى .. ولن يتعدل نصيب " جنات " .. وسيجثم العجز على قلبه .. وأصحابـه اللطاف هنا سيفقدون صاحبـهم .. وسيكفون عن الغناء وتعود لـهم وحشـتهم السـابقة .. أيعود إلى " كفر السلطان " ليتلاشى هناك شقاء كما تلاشوا هنا شوقا ؟

ـ كلمنا يا " مهاود " !

ارتعاشـات القلق تهدج الأصوات العذبـة

= إذا رجعـت إلـى بلـدى .. ألا تسـتطيعون أن تخبرونى كيف أعود إليكم ؟

ـ توجد طريقة لكننا لانضمن النجاح فى تنفيذها !

هل قررت الرحيل يا " مهاود " ؟

= أمى وأختى بحاجة إلى

ـ هما تعرفان أنك هنا وأنك ضللت الطريق .. لقد قرأنا الرسالة التى كتبتها لهما !

= الرسالة .. ذكرتمونى بها ! ألا تعلمون لماذا وصلتهما رسالتى ولم يصلنى منهما رد ؟

ـ نعم .. نعم .. نعرف .. نعم نعرف !!

تصايحوا فى صخب .. صرحت أصواتهم بأن لديهم ما يقولونه .. أفئدة الطير فى نفوسهم استخفتها السعادة .. هذا هو السؤال الذى كانوا ينتظرونه ..

ـ لقد كتبت عنوانا ليس له وجود !

= بل كتبته على مكتب البريد الذى نحن فيه الآن..

ـ لا ! أنت كتبت : " مكتب بريد شرشبيل " .. لقد قرأنا العنوان وأنت تكتبه !

= كيف إذن ليس له وجود ونحن نجلس فيه ؟

ـ لا .. أنت مخطئ .. هذا ليس " مكتب بريد شرشبيل " .. ما هذه الـ " شرشبيل " ؟ لا شئ اسمه " شرشبيل " !

دورى يا دوامات التوهة وضيعى " مهاودا " مزيدا من الضياع !

تتابعت الأصوات :

ـ هذا مكتب بريد " **عين الخير** " !

" **عين الخير** " ؟ الرسائل القديمة كلها مكتوب عليها هذا الاسم .. من أين أتى باسم " شرشبيل " إذن ؟ هل اخترعه ؟ لقد رآه مكتوبا بالأزرق القاتم وبخط ممدود الحروف .. قرأه .. نعم قرأه ..

= اللافتة ! اللافتة فى محطة القطار !

تطايرت أصواتهم فراشات مرحة :

ـ نعم .. نحن كتبناها .. اخترعنا الاسم !

صرخ فى حدة :

= اخترعتوه ؟!

تساقطت الفراشات .. وأطبق الصمت ! عاوده الشعور بأنه مخدوع .. أى شرك وقع فيه ؟ خديعة .. لهو .. مزاح .. اختطاف ؟ أمن الممكن أن يكونوا بمثل هذا المكر ؟

" أتوه وأضيع .. أترك أهلى ويلتاع قلب أمى ويتوه صديقى معى وتفلت فرصة العمل .. كل هذا ليلعبوا ؟ سأرحل إذن ! سأعود مع مرتضى ! "

= هيا اذهبوا بعيدا عنى .. هيا

اجتاحه الغضب .. ضرب بقبضته الهواء .. لطمه .. بسط كفيه وقبضهما محاولا أن يتصيد أحدهم! استشعر أساهم وهم يخرجون .. فليخرجوا! هذا ماكان ينتظره ليرحل .. لاهون عابثون لا يستحقون بقاءه معهم .. مخلوقات تافهة كاذبة .. ضحكت عليه .. تعمدت تضييعه .. خططت بخبث ليقع فى شركها ! وهاهو محبوس لديهم .. محاط بهم .. وهاهم يسيطرون تماما على حياته ..

" يتساءلون ببراءة : ما هذه الشرشبيل ؟ لا يعرفون ماهى ! هى صنيعة أيديهم .. الخبثاء .. بل الأغبياء ! يكذبون ويعترفون ببلاهة ! "

تهاوى قاعدا .. قرفص ساقيه .. عقد ذراعيه .. أسند مرفقيه إلى ركبتيه .. رمى نظراته الزائغة نحو بقعة ليس لها وجود .. ضغط صدره بذراعيه المعقودتين محاولا كظم ثورته ..

" أى فائدة سيجنيها هؤلاء ؟ "

إنهم لم يكلفوه بشئ ولم يحملوه عبئا .. شهور مضت وهو معهم لم يجد منهم إلا الرغبة فى بقائه معهم .. يسعدون بصحبته .. يغنون له .. يحطمون عجزه ويشعرونه أنه إنسان قادر على العطاء !

فلماذا يندفع ضدهم ويتمادى فى اتهامهم ويسارع بإقناع نفسه بأنهم سيئون ؟ ما قاله " مرتضى " صحيح .. الإنسان خبيث شرير !

" لو لم يتعمدوا وضع اللافتة ! لكن لماذا أجزم بسوء نيتهم ؟ لأنه ليس هناك ما يبرر تصرفهم الشاذ ؟ لكننى لم أسمع تبريرهم .. أفزعتهم بصراخى واتهامى قبل أن يكملوا حكايتهم .. ثم اننى لم أقرأ اللافتة قبل نزولى .. لقد دفعت دفعا وجرفنى تيار النازلين فنزلت .. لكن أين ذهب هؤلاء النازلون ؟ ولماذا لم أجد أحدا غيرى على رصيف المحطة ؟ "

ـ وضعنا اللافتة لنضمن بقاءك معنا

همست الأصوات بنبرة كسيرة .. عادوا إذن دون أن يلحظ .. ارتاح قلبه الذى كان قد بدأ يخشى اختفاءهم وغيابهم ..

ـ ودفعناك داخل القطار لنجبرك على النزول !

ـ كنا نعلم أنك ستحبنا

ـ لو أنك عرفت اسم البلدة لسهل عليك الرحيل

ـ أهلك كانوا سيعثرون عليك سريعا لو كتبت لهم عنوانك صحيحا

ـ ونحن بحاجة إليك !

ـ هل أغضبناك ؟

ـ لم نرغب فى إيذائك

ـ كان يجب أن تسألنا : لم فعلنا هذا ؟ لا أن تتهمنا قبل أن تفهم !

ـ رددت على حبنا بالقسوة والجحود !

استمرت الجمل تلسعه وهو مقرفص عاقد ذراعيه منصت فى حيرة .. بينما حرارة غضب المخلوقات ترتفع .. يتجمهرون حوله .. أحس بمكتب البريد مكتظ بهم .. هل سيؤذونه ؟ ساوره خجل من انقلابه ضدهم .. كانوا فرحين سعداء وهم يحكون له ما فعلوه .. كانوا مستعدين لمصارحته بكل ما لا يفهمه .. لقد ضيع بغباء لحظة تقارب قد لا تتكرر .. خطر له أن يغادر المكان لكنه تجمد .. ماذا لو فتكوا به ؟ انكمش على نفسه .. هل سيهاجمونه من اليمين أم من الخلف أم سيهبطون عليه ؟ حمى رأسه بكفيه .. تلفت فى كل الاتجاهات .. أفلتت منه شهقات فزع .. امتلأ المكان بالصخب .. ما عاد يسمع كلماتهم .. سد الرعب أذنيه .. أطبقت يد على عضده .. برقت

عيناه فزعا .. العجوز تجذبه لينهض .. يسير معها كطفل .. تخرجه من مكتب البريد .. الأصوات تتابعهم :

ـ دعيه ! نحن منه غاضبون !

ـ لسنا مخادعين !

عادت به للمنزل .. جلس فى حجرته وحيدا .. أينفضون من حوله ويطبق السكوت على حياته ثانية ؟ ويعود يندهش من صوته .. ويتسمع ذرات الهواء وهزيم الرعد حتى يأكله الصمت وتتحلل حياته ؟

دخل عليه " مرتضى " .. هب نحوه فى فرح .. كان قد نسى أنه معه !

= الحمد لله أنك هنا !

هى التى تدفع الجميع نحو الرحيل

غاص قلب الأم لما أخبرها الطبيب أن " جنات " ستغادر المستشفى بعد أسبوع .. شغلتها إصابة البنت عن التفكير فى تجهيز الدار .. استكانت للإقامة فى المستشفى .. تنام على ملاءة مهترئة تفرشها على الأرض بجوار سرير " جنات " .. تطالعها بقايا الطعام وفضلات المرضى وأكياس الفاكهة المدسوسة تحت الأسرة .. وينحصر عالمها بين هذه الجدران المطلية بالجير وبين هذه الوجوه الشاحبة وروائح المرض والدواء .. والقلب والروح والأمل معلقة بالغالية الراقدة فوق السرير .. والشفتان تتمتمان ـ دون كلل ـ بالدعاء .. ويطرق الغائب

خاطرها على استحياء فتتحدر دمعة سرعان ما تمسحها بكف خشن طال شقاؤه ..

الشيخ " حمد " ما توانى عن زيارة " جنات " .. وكان يصحب كل من له طلب فى المدينة لزيارتها .. ومنه عرفت - حين جاءها زائرا مصطحبا بعض أهل كفر السلطان - أن ما تبقى من الدار هو الحجرة الخلفية وجزء من سلم السطوح ..

- لا أجد غيرك أثقل عليه يا شيخ " حمد " لكن..

انسحب الزوار حين اشتموا رائحة احتياج .. سحبهم عوزهم إلى خارج الحجرة قبل أن تطلب منهم شيئا ..

مال الشيخ " حمد " مصغيا ..

- لو أحضرت لى قفلا أضعه على باب الحجرة أكون .....

قطعت يده استرسالها حين امتدت بقفل جديد فى علبة خضراء ..

- الله يسترك

لم تسأله ماذا تبقى من " فرش " البيت .. لم تسأله إن كانوا قد أخرجوا شيئا من تحت الرماد أو إن كان هناك غطاء لجنات أو حصيرة أو ... لم

تسأله أيضا عن " مهاود " .. سئم الناس همومها .. هى نفسها سئمت همها وقهرها وعذابها .. يكفيها القفل الذى اشتراه لها والذى لن تدفع له ثمنه .. القفل الذى يطمئنها .. يهدئ سعير فزعها .. والذى لا تدرى لأى غرض تحتاجه ولا على ماذا ستقفل حجرتها الجرداء ؟!

مالت على " جنات "

ـ أو تعرفين عمك الشيخ ؟

تمتمت بحروف غريبة مبتورة .. لم يعد كلامها مفهوما بعد أن تكسرت أسنانها وانقطعت قطعة من لسانها بين أضراسها حين كفأها الجدار المنهار على وجهها ..

= أصبحت مثل الحصان وستخرجين من المستشفى ..

ابتسمت فظهرت الفراغات المظلمة فى فكيها ..

همس الشيخ للأم :

= أريدك فى كلمتين ..

أشارت " جنات " بذراعها الذى تبقى لها بعد أن انفصل الآخر عن جسدها تحت عرق خشب ضخم .. أشارت لهما أن يبقيا معها ..

= تريدين سماع سيرة " مهاود " ؟

ابتسمت ورددت كلمات كثيرة لم يفهمها .. بينما صمتت أمها واستكانت كعادتها عند الحديث عن حبة القلب الغائب ..

= أرسل " مرتضى " لأبيه رسالة وصلته في اليوم التالى لسقوط الدار .. أخبره فيها أنه مسافر إلى مكان قد يعثر فيه على " مهاود " ..

ضحكات " جنات " وكلماتها الفرحة المبهمة تقطع حديثه .. بينما أمها ـ التى لا تريد للحديث أن ينقطع ـ تشير لها أن تصمت ..

= لم أخبرك فى وقتها .. كنت مشغولة بجنات وكان بك من الهم ما يكفيك .. لكن كان لا بد وأن تعلمى قبل العودة للكفر .. فالناس هناك يتحدثون

صمت الشيخ .. والدار وقعت منذ حوالى شهرين ..

ـ ألم يرسل ثانية ؟

= نعم .. لم يرسل ! ولم يعد إلى طلع النخل أو إلى كفر السلطان !

ـ انقطعت أخباره هو الآخر ؟

قالتـها وهـى تـدق علـى صـدرهـا واللهفـة تشـرخ صوتها وتغطى الوجه المكدود

ـ يا ضناى يا ابنى

" جنـات " تصيـح فـى غضـب .. تنـثر كلماتـها المبتورة جمـرا يحـرق قلـب أمـها أكـثر .. نعم هـى تستحق ذلك .. تستحق .. هى التى تدفع الجميع نحو الرحيـل .. لقـد ضيعـت " مرتضـى " كمـا ضيعـت " مهاودا " ..

لماذا أنت مختلف يا مهاود ؟!

لم تكن هناك طريقة فى ذهن " مرتضى " للعودة إلى " كفر السلطان " .. لم يتصور إطلاقا أن يكون هذا حال البلدة .. ظن أن " مهاودا " - إن كان هنا - لم يستطع العودة لأنه واقع فى ورطة .. ارتكب مخالفة .. أصيب .. أو حتى مات .. لكن أن تكون البلدة بلدة أشباح .. خالية من الناس .. مقطوعة عن الدنيا .. فهذا ما لم يخطر له على بال !

كانت الشمس تميل نحو الأفق الغربى وهما جالسان على حجرين كبيرين يستقبلان بواكير نسائم الغروب الطرية .. يتشممان فيها رائحة نسائم أخرى قادمة من بعيد ولا يبوحان .. ينتظران هبوط الليل الذى قد يحمل سكونه صوت القطار ليحيي الأمل فى

نفسيهما بأن هناك طريقا .. وأن حلم العودة قد يتحقق ..

اعتاد " مرتضى " أن يرافق " مهاودا " فى رحلته المسائية اليومية .. وأن يستمع إلى حواراته مع الأشباح .. يستمع إليهم والقلب معلق بالرحيل .. بالفرار .. والكيل فاض باستكانة " مهاود " وارتياحه ! يندهش لاسترخائه .. لسعادته وهو يحادثهم !

" وكفر السلطان يامهاود .. أين هى من قلبك ؟ ألم تعد تشتاقها ؟ أم أن عذاباتك هناك مثلما مزقت سعادتك وكرامتك قد مزقت ولاءك وانتماءك ؟ لكننا جميعا معذبون يا مهاود .. معذبون .. نروح ونعود إليها لتعذبنا من جديد .. هو إدمان العذاب يا مهاود .. هو الشعور بالغربة والوحدة حين يرتاح البال .. حين لاتجد من يلتمس النجدة ويطلب المساعدة ويشكو الفقر ويخطف الرزق ويتكالب على الحياة ! أدمنا حياتنا هناك وأدمنتنا وأدمتنا ! فلماذا أنت مختلف يامهاود ؟ "

لم يكونوا يوجهون له أى حديث .. كان ـ فقط ـ يسمعهم .. وكثيرا ما سأل نفسه : لماذا لم أستطع أن

أحب هذه الأشباح ؟ كان يدرك أنهم يعرفون شعوره ناحيتهم .. وكان ـ لذلك ـ يتحاشى نظرات العجوز التى ترمقه بها وهو يتناول الطعام الشهى ويرتدى الملابس النظيفة وينام فى الفراش المرتب .. ونفس النظرات التى وجدها " مهاود " أخف من أن تحدد .. وجدها " مرتضى " أثقل من أن تحتمل !

" غريب أمرك يا مهاود ! كيف استطعت أن تحب أشباحا ؟! مختلف أنت عن الجميع .. منذ كنا صغارا نلهوا فى حقول كفر السلطان وأنت مختلف ! "

ـ أتذكر يوم باضت الحمامة فى حجر جلبابك يامهاود ؟!

ضحك " مهاود " طويلا ثم قال فى عتاب :

= لكنك صممت أن تجذبنى من ذراعى وتنهضنى وتكسر بيضتها !

ـ أكسر بيضتها ؟! أما زلت حزينا من أجل تلك البيضة ؟!

= اطمأنت الحمامة فى حجرى يا مرتضى .. وباضت !

- حمامة بلهاء باضت فى جلبابك .. أتبقى قابعا فى مكانك حتى ترقد على بيضتها وتفقس وتربى فرخها ويطير ؟!

= لم أقل هذا .. ولكنها كانت مطمئنة لى ..

- نعم .. وماذا كان بيدك أن تفعل ؟

= كان من الممكن أن أحافظ لها على بيضتها .. على الأقل أضعها سليمة حيث كنت جالسا ..

- لاتحزن يامهاود ! وأعدك إن باضت حمامة أخرى فى حجرك ألا أكسر بيضتها .. وأن أضعها سليمة حيث تكون جالسا !!

نظر إليه " مهاود " فى شك وعيناه مليئتان بالحب والدموع ..

23

الوجد والمعاناة وتباريح الفراق ..

ـ أترانى ؟

سأله صوت " سليم "

= أظن .. لكن ....

ضحك وصخب وسعادة تتفجر من كل مكان ..

ـ شكله ليس مثلك يا " مهاود "

" ما هو إلا طيف !! أيكون هذا الطيف هو سبب كل هذه السعادة ؟ أم أنهم يرون أكثر مما أرى ؟ مؤكد .. فما أراه لا يستحق هذا الفرح "

= أنا لم أر إلا طيفا يظهر ويختفى

ـ المهم أنك ترى

ـ نعم .. هذا هو المهم ..

ـ سنكون مثلك يا مهاود

ـ ستتحدد أشكالنا شيئا فشيئا ..

تعاقبت سعادتهم جملا متراقصة مغردة

" أذكياء .. خفاف .. أقوياء .. قدراتهم عظيمة رغم أنهم بلا أجساد .. كيف سيكونون إذن إذا كانت لهم أجساد ؟ "

واجه الطيف " مهاودا " الصامت الشارد

ـ ظننت أن ظهوري سيسعدك

ـ ألم تقل لنا أنك قد تتركنا لأنك لا تعرف لنا شكلا ؟

" أأصارحهم بأنهم قد ازدادوا غموضا وأن قدراتهم ترعبني ؟ وما دامت هذه قدراتهم ففيم يحتاجونني ؟ "

أجابوه بدون سؤال :

ـ لاتتركنا .. نحن في حاجة إلى عينيك وروحك!

نفث الرعب في جوانحه زفرته الثلجية الحادة فتقلصت أحشاؤه .. يريدون أعضاءه إذن ! سيفكونه إلى أجزاء وقطع !

= ستقتلونني ؟

أطبق صمت .. خف الطيف حتى كاد يتلاشى تماما ..

ـ نقتلك ؟ كيف تظن هذا ؟ كيف نقتلك بعد كل ما فعلناه لنأتى بك إلى " عين الخير " ؟ وإذا كنا نريد أن نقتلك فلم لم نقتلك من البداية ؟

امتزج الخجل فى قلبه بالارتياح .. ليت سلامة تفكيرهم وسلاسته تنتقل إليه ..

ـ قالوا ان أجدادنا كانت لهم أجساد مثل العجوز ومثلك .. وكانوا يرون بعضهم .. لكنهم فقدوا الرغبة فى الظهور فتلاشوا شيئا فشيئا !

" أمطرى يا سماء عين الخير كذبا .. أوتتلاشى الأجساد وتزول الملامح لمجرد أن أصحابها يرغبون فى ذلك ؟ ليتهم يعرفون كم رغبنا وكم تمنينا وكم تعذبنا لنحقق شيئا من أحلامنا التى لم تتحقق أبدا ! أما هنا فما عليهم إلا أن يرغبوا فتتحقق رغباتهم ! لكن .. لم لا ؟ البلدة بها شئ مسحور .. ليست كغيرها من البلاد .. ألم أشعر أنا نفسى فى بعض الأحيان أننى أخف وأتناثر وأن ذرات جسدى تتطاير " ؟

ـ شفهم الحزن يا مهاود حتى تبخروا !

= أى حزن ؟

ـ السفر والغربة .. الانتظار والحنين .. تعاقب الأيام الخاوية المملة .. قالت لنا العجوز أنه منذ سنوات طويلة كان كل رجال البلدة مسافرون .. وكل الزوجات حزينات .. وكل الأطفال صامتون ..

= سافر جميع رجال كفر السلطان إلا قليلا ولم يتلاش منهم أحد ..

ـ لكن الأمر طال فى " عين الخير " والسنوات تعاقبت والتهمت الغربة كل الأعزاء وصارت كل الأسر مشطورة

" أويظنون أننى سأصدق هذا الهذيان ؟ "

سكت " سليم " .. " مهاود " لا يصدقه .. استشعر هذا بحدسه الفذ .. حاول أن يجد طريقة أخرى يشرح له بها .. لا بد وأن يقتنع لكى يبقى معهم ..

ـ أنت تسمع بالطبع عن النساك المتأملين الذين يتلاشون ويختفون ويقطعون مسافات شاسعة بأجسادهم فى غمضة عين .. ألم يصل بهم التأمل والاستغراق الفكرى إلى درجة التحكم فى أجسادهم المادية بالظهور والاختفاء ؟

= وهل كان أجدادكم نساكا متأملين ؟

- لا تسخر منا يا " مهاود " .. أو لا ترى بنفسك أننا غير ظاهرين رغم أننا موجودون ؟ كان أجدادنا ما كانوا .. المهم أنهم ضعفوا .. انسحبوا .. اختفوا .. وأورثونا هذا الخفاء الذى نحن فيه والذى لايمكن أن تتكره ..

رنة الصدق فى أصواتهم مست قلبه .. وهو : " **مهاود** " ! لا يحب أن يؤذى من يطمئن إليه .. وهناك فعلا نساك يجعلون من أجسادهم مجرد أفكار إذا رغبوا .. لكنهم قليلون .. ووصول بلدة كاملة إلى تلك القدرة شئ لا يستطيع أن يسلم به ..

لكن الوجد والمعاناة وتباريح الفراق ومرارة العيش وبرودة الأيام .. والصدور المطويات على نصال العذاب تشطرها وتمزقها .. والنساء اللاتى ما عدن يجدن لملامحهن سببا ولا نتيجة .. والأبناء المتربين فى خدور الذائبات وجدا وشوقا وعذابا .. ويد الفراق والتشتت تذيب كل المفردات .. أو لا يعادل كل هذا العذاب فكر النساك ؟ أو لا يشف الأجساد ويطيرها ويلاشيها ؟

= لكنى لا أفهم كثيرا فى تلك الأمور فأنا مجرد باحث عن الرزق ..

ـ وكذلك كان أجدادنا يا مهاود .. عاشوا فى " عين الخير " حين كانت مملوءة بالرزق الوفير .. فلما نضب خيرها هجروها .. ارتحلوا بحثا عن لقمة العيش .. و ولد أبناء لا يعرفون لآبائهم شكلا ونسى الآباء ملامح أبنائهم وشاخت الزوجات وانفطرت قلوب الأمهات .. وبمرور الوقت صار الجميع أجزاء لا صلة لأحدها بالآخر .. والسنوات تتعاقب .. والصغار يكبرون فيرحلون .. ويصيرون أجزاء غريبة لا تنتمى لإطار ولا تشكل لوحة .. صارت بلدتنا بلدة الأفراد .. فرد يهجرها ولا أحد ينتظره فيها .. وفرد يقيم ولا ينتظر أحدا خارجها ولا فيها .. الأبواب لا تطرق والأسماء لا تنادى ..

غمر الأسى " مهاودا " .. ألحت عليه ذكرياته مع أمه وأخته وكفر السلطان .. و" سليم " ما زال يحكى له عن الأجداد الذين تسربت إلى نفوسهم ـ عبر الأيام ـ كراهية أجسادهم حين اعتقدوا أنها ومتطلباتها سبب التمزق الذى أصابهم .. وكيف أيقنوا أنها حمل لا طائل وراءه .. فماتت التعبيرات وبهتت الملامح ورقت الأجساد وشفت .. وكما تتكيف المخلوقات مع بيئاتها تكيف الأجداد

مع واقعهم .. أى قيمة للأجساد فى زمن لا يجد فيه المرء من يحب أن يراه .. أو يصافحه .. أو يضمه ؟ وما قيمة الملامح إذا كان من يهمهم أن يروا الملامح بعيدين .. مشتتين شرقا وغربا ؟ اعتزل الناس بعضهم .. ضربتهم اللعبة .. صاروا يضمرون ويرقون .. أغلقوا أبوابهم ورغب كل منهم فى ألا يراه أحد .. فقدت الملامح قيمتها .. الكل حزانى ملهوفون على الغائبين .. والأعين ما عاد لها أحباء تشتاق لرؤيتهم ..

الأشواك تخز قلب " مهاود " ..

= لكن ما فائدتى أنا ؟

- أنت تريد أن ترانا يا مهاود وهذا ما نحتاجه .. نحتاج لمن يعرف معنى الوجود المادى ويدرك كنهه .. لمن يرغب فى رؤيتنا ويحب ظهورنا .. نحتاج لدافع يدفعنا للظهور كما وجد أجدادنا دافعهم للتلاشى ...... فهل ستبقى معنا ؟

24

من له باب بجوارنا سده ؟

صارت أم " مهاود " لعنة تحل على كل من له بها صلة .. وأبو " مرتضى " لا يكف عن الدعاء عليها فى كل مجلس .. ويسميها " المشنومة " .. بدأت تصدق أنها وابنتها مشنومتان .. وأنهما نار تفتك بمن يقربها .. فمهاود انشقت الأرض وابتلعته .. و " مرتضى " تاه فى بلاد الله .. وحتى هاتك الأعراض أصيب فى عقله بعد ما فعله بجنات ونسى الناس جرمه وتذكروا كيف كان شابا .. طولا وعرضا .. ثم نزل به ما نزل منذ أن "....." ثم يمصمصون شفاههم شفقة عليه ! ويستعيذون بالله من شؤم " جنات " !

ـ ليس لك ذنب فيما حدث يا ام مهاود

واساها الشيخ " حمد "

= الجيران صاروا يخافوننا .. ومن له باب بجوار بابنا سده وفتحه من جهة أخرى لكى لا يرانا

أقبلت " جنات " تطوح كم جلبابها الخالى .. رأت الشيخ " حمد " فافتر فمها عن ابتسامة طيبة ..

ـ " وثل " جواب يا عم " الثيخ " ؟

= صرت عجوزا هتماء مثل " الثيخ " حمد يا " جنات " ..

ضحكت بخلو بال .. لم تعرف يوما لجمالها قيمة ولم تحزن حين تبدد .. مدت اصبعها إلى فم الشيخ حمد :

ـ عندك " أثنان " كثيرة

خلع طقم أسنانه وأخذ يطبل بشفتيه فطبلت مثله

= " ثأحضر " لك جلبابا " أذرق " مع بناتى يا جنات

ـ أريده " أثفر " يا عم " الثيخ "

نهرتها الأم : عيب يا جنات .. عندك جلبابك

ـ جلباب قديم مقطع

حاولت الأم ردها عن طلبها :

ـ أنا سأحضر لك غيره

= " ليث " معك " فلوث "

قال الشيخ بعد أن وضع طقم أسنانه في فمه :

ـ هذا اتفاق بيني وبين " جنات " ولا دخل لأحد بنا ..

قالها وهو ينهض وجنات ترنو له بعينيها الجميلتين وتطبل بشفتيها في سعادة .. .. ..

25

فتح جب الفاجأت فاه وابتلعه !

أطياف كثيرة تحيط بمهاود .. بعضها على الأرض وبعضها معلق فى الهواء .. ومنها ما يتسرب من بين حديد النافذة .. والعجوز جالسة لا تكاد تبين من الأطياف التى حطت على رأسها وكتفيها وركبتيها .. كأنها شرانق حريرية شفافة أو قطع من غزل البنات !

ـ لا نريدك أن تغضب منا يا " مهاود " .. لكننا لا نثق بصديقك ! إذا ذهب سيذيع سرنا .. وتنقلب الدنيا علينا هنا .. وأنت تعلم حرج المرحلة التى نمر بها الآن

= " مرتضى " أمين وصادق ولن يفشى سركم ما دام وعدكم بذلك

- إن أذاع سرنا ستمتلئ عين الخير بفضوليين قساة .. لا يحبوننا .. ستتبدد طاقتنا التى نستمدها من حبك وعطفك بعد أن نجحنا فى تحويلها إلى أطياف مرئية .. وإذا بقيت معنا قد ننجح فى تحويلها إلى مادة .. لنصبح مثلك وترانا مثلما نراك !

= أنا لن أترككم .. لكن دعوا " مرتضى " يذهب فهو على حافة الهلاك .. ثلاثة أيام مضت وهو ممتنع عن تناول الطعام

" جاء مرتضى إلى هنا من أجلى .. وها هو يموت بين يدى .. تأكله نفس الغربة التى أكلت ناس عين الخير من قبل .. ألقى فى أرض لا يحب من فيها ولا يحبونه .. وأجبر على الإقامة معهم .. ليأكله نفس الغول الذى يأكل كل الغرباء .. لن يقول مرتضى شيئا .. أنا أعرفه .. ليس من الحتمى أن يهلك أحد لا هو ولا الأطياف .. ليس هناك تعارض "

= لا تسلموا مرتضى للهلاك بسببى ..

- أتريد أن نهلك نحن يا مهاود ؟

صوت " سليم " العاتب يحز فى ضميره .. صمتت الأطياف .. تجمعت حول العجوز .. أحاطت

بها حتى حجبتها .. للمرة الأولى انتبه " مهاود " إلى أن العجوز مرئية ! ربما لأن الوضع الطبيعى هو الرؤية كان يراها ولا يلحظ غرابة الأمر .. أما الآن فقد انتبه ـ ولأول مرة منذ مجيئه إلى هذه البدة ـ إلى أن العجوز مرئية وأن هذا يعتبر أمرا غريبا ! ملأت الدهشة كيانه .. وحين عادت الأطياف للانتشار بعد مداولتهم.غير المنطوقة مع العجوز .. كانت مسألة عودة " مرتضى " قد تراجعت لتخلى مكانها لمسألة أخرى ..

= لماذا لم تختف العجوز مثلكم يا " سليم " ؟

قفزت الأطياف وطارت ودارت حين سمعت السؤال .. وحام " سليم " بينهم يهدئ ثورتهم

ـ كفوا عن الغضب والمشاعر البغيضة .. لا تهدروا طاقتكم دون فائدة .. مهاود معذور فهو لا يعرف شيئا عن العجوز ..

مد " مهاود " ذراعيه وبسط كفيه محاولا الاعتذار .. فحط " سليم " على ذراعيه الممدودتين..

هدأت سرعة الأطياف ..

" زعيم أنت يا سليم .. على أى صورة كانت ستصبح إقامتى هنا بدونك ؟ "

ـ ألم تسأل نفسك يوما كيف استطعنا أن نتجمع هنا ؟ وما الذى حمانا من التفرق والضياع فى بلاد الدنيا رغم أننا لا نرى بعضنا ولا يرانا أحد ؟

= ....

ـ جمعتنا العجوز حولها .. أخبرتنا أننا قد نظهر .. أفهمتنا أنه لابد من يوم آت يتغير فيه حالنا فلا شئ يبقى على حاله .. بشرط أن نرتبط بالمكان ـ الذى كانت هى علامته ـ وألا نفرط فيه ..

فحص " مهاود " العجوز بعينيه .. تجلت فى ذهنه أشكال الكواكب والنيازك .. بالعجوز شئ حجرى .. أزلى .. راسخ .. وكأن لها امتداد عبر الأزمان ..

= هل تتكلم العجوز ؟

ـ طبعا تتكلم .. فهى التى اتفقت مع سائق القطار على المرور بالقطار على الخط القديم و .. ..

غاب ذهن " مهاود " عن المتابعة ..

فتح جب المفاجآت فاه الرهيب وابتلعه من جديد!

العجوز الصامتة منذ شهور وشهور تتحدث !
وكان يمكنها بكلمات قليلة أن تعفيه من آلام كثيرة !
لكن كيف ؟ أليست هذه بلد المتاعب ؟

اكفهر وجه " مهاود " .. سألته الأطياف الرقيقة عما به .. أيقول لهم أنهم مخادعون ؟ وأن عجوزهم الخبيثة هى رأس الخداع ؟

هم قادرون على حبسه فى تلك البلدة الكابوسية للأبد .. فهل من الصواب إفساد علاقته بهم ليمنعوه هو وصديقه من العودة لوطنهم ؟ صديقه ...... نعم .. لقد نسى أمر " مرتضى " ..

ــ دعونا من هذا الآن .. ماذا قررتم بشأن " مرتضى " ؟

= سيسافر .. أخبره بذلك إن شئت !

26

ما زال الحمام يبيض فى حجرك

يا مهاود ⁉

بطريقة مشابهة لتلك التى أحضر بها " مهاود " إلى عين الخير .. أخرج " مرتضى " منها .. وجرب ما حكاه له " مهاود " عن نزوله من القطار مدفوعا حتى وجد نفسه على رصيف محطة " شرشبيل " المزعومة ! جربه حين وجد قوة توجهه إلى طريق معين .. تطير به حينا .. تجره حينا .. تدفعه أحيانا .. تماما كما لو كان مضغوطا بين حشد يعصره ويفقده إرادته فى توجيه حركته بنفسه .. إلى أن وجد نفسه قريبا من محطة القطار .. وعندئذ توقف الدفع .. فجرى وقفز داخل

القطار وهو لا يصدق ما حدث ! الاختلاف الوحيد أنه ظل يدفع ويحمل ويطار به حتى محطة القطار البعيدة .. أما " مهاود " فقد كان ولابد - لكى يطمئن إلى الأمر - أن يجئ به القطار إلى محطة " شرشبيل " القديمة المهجورة وأن يجد نفسه فى ساحتها تماما !

" مسكين يا مهاود .. إلى متى ستظل حبيس تلك البلدة ؟ كان يمكنك أن تذهب مثلى .. لكنك لا تريد .. فما زال الحمام يبيض فى حجر جلبابك ! "

يحاول " مرتضى " أن يرتب أفكاره .. أن يعد الكلمات التى سيرد بها على من يسأله عن " مهاود " وعن رحلته إليه ..

صديق متروك فى بقعة منقطعة الصلة بالعالم .. وأمه تنتظره .. وهو - مرتضى - لابد وأن يقول لها ما يطمئنها دون أن يعشمها بالكثير .. وأبوه - أبو مرتضى - سيستنطقه كعادته .. سيحاول أن يستخرج منه كل ما لا يريد قوله ! هذا الأب الذى يشك فى صدق الصادقين ألا يشك فى صدق ابنه حين يكذب عليه ؟

" سامحك الله يا مهاود .. ولعنـك الله يـا أشـباح شرشبيل ! "

(قابلت مهاودا وهو بخير .. لكن صاحب العمـل يحتاجـه ولايسمح لـه بالسـفر .. وهـو فـى منطقـة منقطعـة عن العمـران فـى جـوف الصـحـراء ولا يستطيع إرسال رسائل ولم يقبض راتبه بعد)

اكتفت أم " مهاود " بما قالـه " مرتضـى " .. لـم تستفسر أكثر .. فهو يستطيع أن يلفق كلمات أخرى !

وانقضت الأيـام الأولـى لعودة " مرتضـى " فـى منعطفات الأكاذيب التى تاه هو نفسه فيـها .. ونسـى ما قاله لهذا فقال عكسه لذاك ! وعرف كل أهل كفـر السلطان أن " مرتضـى " يكذب .. واشـتعل الكفـر باسـتنتاجات حـول العمـلة السـوداء التـى عملـها " مـهاود " والتـى يحـاول " مرتضـى " أن يداريـها عنهم !

ألا تدرى كم يهدر الكلام من أعماركم ؟!

عزمت الأطياف على مصارحة " مهاود " .. نعم .. لابد وأن يخبروه أنه بطريقته هذه يعطل محاولاتهم للتجسد ويؤخر عودته إلى وطنه .. وهم لايعرفون سببا لتحوله هذا .. لكن أطيافهم تشحب .. وتخف .. وتكاد تزول .. والطاقة التى يستمدونها من حبه لهم تقل .. وهم لايدرون لماذا تبدلت مشاعره ؟ لقد صار يفضل الوحدة على صحبتهم .. وباب حجرته أصبح مغلقا عليه معظم الوقت ..

هاموا يبحثون عنه .. وجدوه خارجا من مكتب البريد .. عاد يتردد على مكتب البريد ويفتش فى الأوراق القديمة .. لم تطعه الابتسامة التى حاول أن يضعها على شفتيه فالتوتا فى توتر .. صارحوه

بأنهم يدركون أنه ما عاد يحبهم كـذى قبـل .. سـألوه أن كان فراق " مرتضى " أحزنه لدرجة أن مشاعره انصرفـت عنـهم ؟ رجـوه أن يبـوح بالحقيقـة .. تسارعت دقات قلبه واشتد دق النبض فى صدغيه ..

" يريدون الحقيقة ؟ وهل باحوا هـم بالحقيقـة ؟ هى بلد الخداع .. هم أنفسهم خدع .. مجرد خدع ! البلدة ليست " شرشبيل " .. وهـم يعرفـون طريقـة العودة .. والعجوز تتكلم .. متاهة زلت فيـها قدمـى وانتهى الأمر ! "

= لا تسئ الظن بنا يا مهاود

قال " سليم " وطيفه يظهر ويختفى ويتماوج ..

= صارحنا بما غيرك

قالت أصوات أخرى تلاشت أطيافها تماما ..

تململ " مهاود " .. ما فائدة بقائه هنا ؟

ـ أريد أن أعود !

هذه الشـهقات الفزعـة للأطيـاف التـى روعتـها رغبته فى الرحيل كان يتوقع سماعها ..

ـ لم تعد لى فائدة هنا ! لم أعد كما كنت !

= لماذا يا مهاود ؟

ـ ماعدت أصدق براءتكم ! صرت متيقنا من مكركم وخداعكم .. وها أنا قد أصبحت بلا فائدة .. فدعوني أذهب إلى من ينتظرونني ويحتاجونني .. أوَ اقتلوني ولا تتركوني في هذا الكابوس ! الموت أهون من أن أعيش هذه المتاهة .. تكذبون وتكذبون وتكذبون وفجأة ـ وببساطة ـ تعترفون بالحقيقة ! تتلاعبون بي مقابل تفضيلي البقاء معكم على العودة لأهلي !

= فيم خدعناك يا " مهاود " ؟

ـ في كل شئ ! اسم بلدتكم .. اختطافكم لي .. ادعائكم أن عجوزكم خرساء ..

= نحن لم نقل لك أنها خرساء ..

ـ لماذا إذن لا تتكلم ؟

= لكي تحفظ جسدها !

قفز " مهاود " غيظا !

ـ أنا أمامكم أرغي وأزبد وجسدي كما هو .. أو تظنون أن الحديث يبخر الأجساد ؟

= لماذا لاتعترف بالاختلاف بيننا وبينك ؟ لو قبلت الاختلاف لجنبتنا الكثير .. أنت تعرف حالتنا .. وقلنا لك أن العجوز هي الباقية من جيل الأجداد

الظاهرين .. وقد اختارت الصمت بإرادتها لتوفر طاقتها حتى تقاوم التلاشى .. وقد كلفها حديثها مع سائق القطار سنوات كثيرة بذلتها راضية من أجلنا .. ونحن لا نريد أن تضيع هذه السنوات هدرا .. العجوز هى أملنا الوحيد .. وقد لا يكون فى عمرها فرصة أخرى تمنحها لنا ! ألا تدرى كم يهدر الكلام وسماعه والرغبة فيه من أعماركم ؟

ـ وماذا أيضا ؟

قالها " مهاود " ساخرا ..

= لابد أن تصدقنا .. لقد عاشت العجوز تعتصم بالصمت لتقاوم التلاشى حتى تجمعنا حولها لحين استطاعتنا الخروج مما نحن فيه .. مئات السنين وهى .. .. ..

صرخ " مهاود " :

ـ مئات ماذا ؟ مئات السنين ؟

= نعم .. عاشت مئات السنين تجمع أبناء " عين الخير " .. تربطهم بالوطن .. تعلمهم الصبر وتهون عليهم الانتظار وتؤكد لهم أنهم لابد ظاهرون .. وكما تلاشى الأجداد بانهيار العزائم سيعود الأحفاد باستجماع العزائم .. حرمت نفسها

من الحياة النشيطة .. من الحركة .. من الضحك .. من الكلام .. من الحب .. وحتى من الحزن لتوفر لنا جسدا ماديا نلتف حوله .. كل انفعال ينقص من عمرها .. كل عاطفة تهدر حياتها .. جمدت مشاعرعا وحياتها لتبقى شاهدا لنا على ماكان عليه وطننا ! والآن .. وبعد كلامها مع سائق القطار وبعد اهتمامها بك وبصديقك لم يبق لها إلا القليل من الوقت لتموت !

- قولوا ما شئتم .. اعتدت أن تقولوا فقولوا !

= فكر فى تضحية العجوز لتعرف كم هى خيرة

- لن أفكر .. ولا أريد أن أعرف مقدار طيبتها ! وأريد أن أعود إلى بلدى !

اختفت الأشباح .. لم يعد يراها .. أحس بهم ينصرفون .. المرارة فى قلبه يشعر بمذاقها فى حلقه .. لقد تلاشوا ثانية .. هو تسبب فى تلاشيهم .. بعد أن اطمأنوا إليه وأحبوه وأحبهم تبدلت مشاعره .. ماذا يفعل وقد فقد الثقة بهم وكره البقاء بينهم ؟ لكن .. لماذا يلوم نفسه ؟ كانوا أشباحا وعادوا كما كانوا ! هو لم يكن سببا فى اختفائهم من البداية ..

ـ مهاود !

انتبه لصوت " سليم " الملئ كمدا .. تلفت حوله فلم يجده !

ـ سنعيدك إلى بلدتك كما تريد !

اضطرب الفؤاد ! أخذته المفاجأة .. كان يقاومهم ويقارعهم وهو موقن فى داخله بأنهم لن يسمحوا له بالرحيل .. أدرك هذا الآن فقط حين وافقوا على رحيله فالتاع قلبه !

ـ مهاود ..

انتبه ثانية ..

ـ نحن لم نوافق على رحيلك لأنك لم تعد ذا فائدة لنا كما قلت .. ولكن لأنك تريد ذلك .. فنحن أحببناك ولن نتعسك ..

" تبا لتلك النفس التى تتلاعب بها الشفقة وتطوحها يمينا ويسارا ! لكن لابد من الاختيار .. إما هنا وإما هناك ! "

سألهم بصوت حاول أن يخفى ما فيه من لوعة :

= هل استشرتم العجوز ؟

ـ نعم .. وقالت أنك كنت ذا فضل عظيم فقد عرفنا عن طريقك كيف نستطيع استمداد الطاقة من المشاعر الطيبة .. و ..

تهدج صوت " سليم " ولم يستطع استكمال حديثه ..

" لا .. لن تؤرجحيني ثانية أيتها النفس الضعيفة .. فقد عزمت أمري " .

مرحى يا صحبة الحب والحنان ..

عاد " مهاود " إلى " كفر السلطان " حاملا معه حفنة الذهب التى وضعتها العجوز فى كفه .. والتى قال له عنها " سليم " أنها من الذهب الذى كدسه الأجداد الذين ارتحلوا بحثا عن المال حتى ضاعوا !

رنت الزغاريد فأطلت رؤوس تستطلع الخبر .. " مهاود " وأمه فى عناق حار أمام بقايا الدار المتهدمة .. و" جنات " تدبدب وتقفز وتدور وتلوح بذراعها الباقية .. احترق قلب " مهاود " حين رآها .. سألت نظراته أمه فأشارت للدار .. طوق " جنات " بذراع ولف الآخر حول كتف أمه .. استشعرت خلاياهم عذوبة اللمة .. مرحى يا صحبة الود والحنان .. تشققت القلوب شوقا وآن لها أن

ترتوى من نبع الراحة الذى طال جفافه .. دخلوا ما تبقى من البيت .. الأرض الطينية عليها حصير متآكل .. جلسوا عليه في دائرة ضيقة تتطلع الأعين إلى الأعين .. ألق العبرات يخفى فرحة اللقاء .. فرت دمعة من عينه داراها بابتسامة وبوعد جديد لجنات :

- غدا سأشترى لك الجلابيب !

اقتربت منه أكثر وهى ترمق أمها بتوجس وقد تهدل شعرها الناعم على جبينها وهمست له :

= أربعة جلابيب يا مهاود !

ضحك عاليا ليخفى ارتعاش صوته الباكى :

- بل خمسة يا جنات ..

انتشر الخبر فى " كفر السلطان " .. جاء الناس ليروا العائد من المجهول .. وضربت كف " مرتضى " بحرارة على ظهر " مهاود " وهو يعانقه .. وتسللت نسوة إلى الحجرة حيث تجلس أم مهاود و" جنات " .. وترددت الأصوات فى المكان الذى تطير الناس من أهله وانفضوا عنهم !

29

وظل قلب مهاود متحبا مغرورا

أصبحت " جنات " تقضى الوقت فى نافذتها ذات الزجاج الملون .. وتنادى على الرائح والغادى .. تضحك لهم فى براءة وخلو بال .. وأثوابها المشجرة والمنقطة والمزركشة تظهر بوضوح للمارة فيقولون :

ـ ما أجمل ثوبك يا جنات !

وكانت تنزل إلى أمها التى تحلب البقرة البرتقالية فى كل أصيل .. تنتظر إناء الحليب لتشرب منه وهو دافئ جرعة لذيذة !

والأم صارت تنشر الغسيل فوق سطح الدار العالية .. وترنو للجارات من أعلى فيبتسمن لها

ويرددن التحية ثم يمصمصن شفاههن ويهمسن : دنيا !

حفنة الذهب بنت الدار .. وأقامت مزرعة دواجن صغيرة وجلبت بقرة وخروفين .. ونال منها " مرتضى " بضع قطع أصلحت حاله ..

وظل قلب "مهاود " متعبا .. مقرورا .. يئن تحت وطأة الخوف من أن يكونوا قد تلاشوا بالكامل .. رقق الشوق مشاعره أكثر.. وأنهكه حب البعيدين ..

أتته أمه بالحمل الصغير فور ولادته ليراه .. مسح بكفه رأسه الأبيض الصغير وابتسم .. قالت الأم : " هناك اثنان غيره " فاتسعت ابتسامته .. سمعها وهى خارجة تتمتم :

ـ ربنا يبارك لك يا سليم يا ابنى !

" سليم " .. صاحب العمل الذى صار صديقه .. هكذا قال لها عنه .. " سليم " وإخوته الذين أحبوه .. وكانوا يريدون أن يظل معهم .. لكنه رغب فى العودة إليها .. قالت الأم :

ـ سافر ثانية ما دام الخير كثيرا هكذا !

صرخت " جنات " وتشبثت بذراع " مهاود " الذى قال :

ـ ليتنى أستطيع !

قالت " جنات " لجاراتها أنها تحب " ثليم " الرجل الطيب الذى أعطى " مهاودا " صندوق ذهب ! لكن أهل البلدة قالوا فيما بينهم أن " مهاودا " سرق صاحب العمل ! وقالوا ان الذهب لو كان أجره حقا لكان سافر مرة ثانيه ! ورغم ذلك أصبحوا يقابلون " مهاودا " بالأحضان وينحنون وهم يرفعون أكفهم بالتحية ! فى البداية كان " مهاود " يندهش من احترامهم الزائد .. لكنه اعتاده وكان يقول فى نفسه :

" البركة فى سليم والعجوز "

وحين سمع بكاء الوليد .. لم يخطر ببال مهاود اسم آخر غير : " سليم " لأول أبنائه ..

وحكى له بمجرد ولادته .. وظل يحكى له دوما .. حكاية العم " سليم " وإخوته الطيبين .. الذين يعيشون بعيدا بعيدا مع أمهم العجوز .. والذين سافر ليعمل لديهم فأحبوه كما لم يحبه أحد فى الدنيا .. وكانوا يريدونه أن يبقى معهم لكنه رغب

فى العودة إلى بلده .. فأعطوه الذهب الذى أبعد عنه الفقر وبنى له الدار وعدل الأحوال .. " سليم " وإخوته الذين أحبتهم الجدة والعمة " جنات " والعم " مرتضى " والشيخ " حمد " وأحبهم كل الناس ..

" وأنت يا سليم ستحب سليم الكبير مثلهم وزيادة "

خاتمة

جرى " سليم " الصغير يفتح الباب حين سمع الطرق .. طالعه الطارق بابتسامة رائعة .. سأله عن أبيه .. سأله الصغير عمن يكون .. أجابه وقد اتسعت ابتسامته حتى ملأت وجهه :

ـ سليم !

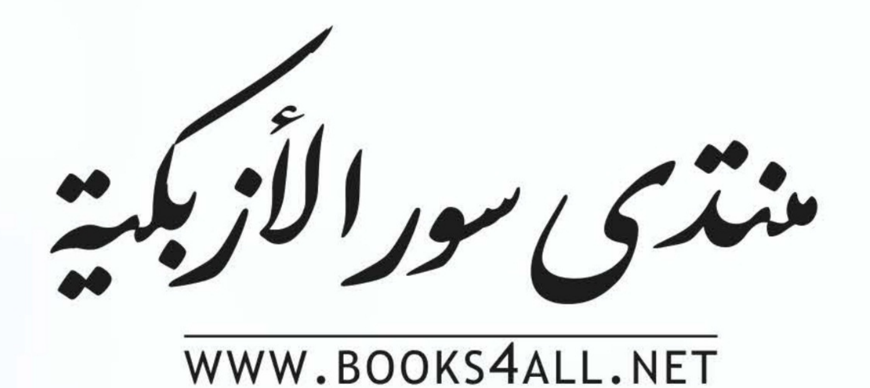
جرى الصغير لينادى أباه وهو يصيح بابتهاج :

ـ عمى سليم .. عمى سليم .. عمى سليم ..

تمت

فبراير 2000

رقم الإيداع
2001 / 15355
====================
I.S.B.N.الترقيم الدولي
977- 324- 114- 9
====================
دار الإسلام للطباعة والنشر
050 /2250453
0122614363



منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET